أضواء على مشكل التعليم بالمغرب :

# « فكر » النخبة

للدكتور محمد عابد الجابري

حاولنا فى الحلقة الماضية (١) ، من هذه الدراسة ، أن نقدم للقارىء صورة مجملة عن حصيلة التعليم فى المغرب على عهد الحماية ، مركزين على أبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية • وقد رأينا كيف أن هذا التعليم قد أدى ، فى نهاية المطاف ، الى تركيز الانفصام فى الشخصية المغربية ، وتعميق الهوة بين النخبة العصرية التى تلقت تعليمها فى المدارس الرسمية (الاسلامية منها والاروبية) ، وبين النخبة التقليدية التى أنتجها تعليمنا الوطنى (الاصلى منه والحر) ، مما أدى الى خلق عقليتين مختلفتين ، أو نمطين فكريين ، متنافرين الى حد بعيد •

لقد كان النمط الاول ، فى جملته ، **غربيا** فى تكوينه وميوله ، مؤطرا ضمن قوالب **الثقافة الاستعمارية** التى تلقاها • ولكنه اذ يطمح الى الاخذ بالنموذج الفرنسى فى جميع مرافق الحياة ، كان يجد نفسه يعانى من تناقض وجدانى حاد : ان شعور الاعجاب بالغرب ، ثقافته وتقنيته وأساليبه وكل مظاهر حياته ، يكبله شعور بالحذر والتحفظ ازاء هذا الغرب نفسه ، الذى هو المستعمر ذاته ، ويشوش صفاءه احساس غامض بماض مزدهر ، وحضارة يعترف بها التاريخ ، هما الماضى المغربى والحضارة العربية الاسلامية •

---

١ ــ أقلام • العدد : ٤ • نوفمبر ١٩٧٢ •

أما النمط الثاني فلقد كان مغربيا عربيا اسلاميا **تقليديا** ، مشدودا الى الماضي الاسلامي بألف وثاق ، الماضي الممجد الى أبعد حد، مما جعله ينتزع منه ، بشعور أو بدون شعور ، صورة المستقبل المأمول ٠٠ لم يكن هذا الفريق في قطيعة نهائية مع الغرب ، بل انه كان ، بالرغم من صورة الماضي الممجد التي استحوذت على ذهنه استحواذا ، يعيش بعض مظاهر الحضارة الغربية ، ويتوق الى أن ينال منها أبناؤه حظا أوفر ٠ ولذلك بقي مستعدا ـ في حدود معينة ـ للدخول مع الغرب في حوار ما ، حوار محدود تلفه بطانة وجدانية سميكة من التحفظ والحذر ٠

قد يبدو ، من خلال هذا الذي قلناه ، أن هناك ، على كل حال ، نقطة التقاء بين الجانبين ، ما دام الاول منهما مندفعا **كثيرا** الى الغرب ، متمسكا **قليلا** بالمقومات الوطنية ، وما دام الثاني ، على العكس من ذلك ، **أكثر** تمسكا بهذه المقومات ، **وأقل** اندفاعا الى الغرب ٠

هذا صحيح ، ولكن في حدود ضيقة جدا ٠٠ حدود زاد من ضيقها ، ليس فقط اختلاف المنطلقات والمسبقات والمفاهيم ، بل أيضا **اختلاف تصور كل منهما لميدان الآخر** ، الشيء الذي يجعل من كل حوار محتمل ، حوارا أكثر بطئا ، وأشد عقما من حوار الصم ٠

لم تكن للجانبين لغة ثقافية واحدة ، وبالتالي فان مصادر معرفة كل منهما بميدان الآخر ، لم تكن واحدة ولا مباشرة ٠ لقد اكتسب الجانب الاول ـ الجانب العصري ـ احساسه الغامض بماضي المغرب ، وبالحضارة الاسلامية عموما ، بواسطة ما كتبه الفرنسيون خاصة والمستشرقون عامة ٠ واكتسب الجانب الثاني شعوره بضرورة التفتح ، ولو بعض الشيء ، على الغرب وحضارته ، عن طريق ما كتبه عرب المشرق ، وهكذا **تعرف الاول منهما على الشرق بواسطة الغرب ، وتعرف الثاني على الغرب بواسطة الشرق** ٠

ان هذه المعرفة غير المباشرة لميدان «الخصم» جعل كلا من الفريقين يتحفظ ، ليس فقط من الاندفاع الى ميدان الآخر سلبا أو ايجابا ، بل حمله أيضا على الشك فى مدى معرفته به . وفى مثل هذه الحالة يصبح السكوت ـ مع بعض المجاملة ـ أفضل ألف مرة من كل حوار او اصطدام .

من هنا يمكن أن نتبين أحد الاسباب الرئيسية فى عدم قيام أى نشاط فكرى فى المغرب خلال الفترة التى أعقبت الاعلان عن الاستقلال . اننا نفتقد ذلك النقاش الفكرى والسياسى الذى يقوم عادة على صفحات الجرائد والمجلات والكتب عندما يجتاز وطن ما ، منعطفا تاريخيا ، كذلك المنعطف الذى اجتازه المغرب من جراء «انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية» (١) ، وهذا أيضا ما جعل السياسيين عندنا يحجمون ـ فى السنوات الاولى من الاستقلال ـ عن طرح اختلافاتهم السياسية أو المذهبية على صعيد الادب السياسى المكتوب . لقد ظل النقاش محدودا فى الاروقة والكواليس ، الشىء الذى مكن الجميع من لجم الصراعات ، وافساح المجال واسعا للتكتيك وما يتبعه من حلول وسطى توفيقية مؤقتة .

السكوت عن المشاكل الحقيقية ، واجتناب طرحها على العموم ، والالتجاء الى التكتيك والحلول الوسطى ، والظهور بمظهر «الاتحاد والانسجام» ... تلك هى أبرز الصفات التى سيطرت على العلاقات القائمة بين عناصر النخبة المسيرة غداة الاستقلال ، وبالتالى المعالم البارزة للاطار العام الذى كانت تلتمس داخله الحلول لمختلف المشاكل المطروحة ، وعلى رأسها مشكل التعليم .

★ ★ ★

على أن الحاحنا على هذا الجانب السيكولوجى ، يجب أن لايحجب عنا الجانب **الموضوعى** ـ الاجتماعى والاقتصادى ـ الذى كان له دور

---

١ ـ جملة من خطاب المغفور له الملك محمد الخامس عند عودته من المنفى . (نوفمبر ١٩٥٥)

أساسي ورئيسي في صياغة هذا الموقف الذي وقفته النخبة القيادية من مختلف المشاكل المطروحة • وهنا لابد من التذكير بمعطيات أساسية في الموضوع •

لقد كانت النخبة التي تولت زمام الامور عقب الاستقلال ، هي نفسها تلك التي تحدثنا عنها في الحلقة الماضية : النخبة التي تمخض عنها تعليم الحماية الفرنسية في المغرب • لقد كانت هي وحدها المؤهلة ـ اجتماعيا وثقافيا ـ لتولي المسؤوليات • وكما اشرنا الى ذلك من قبل ، فان هذه النخبة كانت ، في الاعم الاغلب ، تنتمي الى العائلات الارستقراطية ، والبورجوازية الناشئة ، التجارية منها والعقارية والزراعية • ان تحليل **فكر** هذه النخبة وأسلوبها في معالجة الامور ، يتطلب التذكير **بأصولها الاجتماعية ، وجذورها الطبقية** • واذا كان المجال هنا لايتسع لعرض مفصل حول نشأة البورجوازية المغربية وتطورها ، فلا أقل من الاشارة المركزة الى الخطوط العامة التي تعيننا على تصور ما كان بامكانها أن تفعل ، عندما تولت مسؤولية التسيير غداة الاستقلال •

بدأت براعم البورجوازية المغربية تتفتح ابتداء من النصف الثاني من القرن الماضي، وهو التاريخ الذي بدأ فيه النفوذ الاستعماري ـ التجاري منه خاصة ـ يتوطد في المغرب • لقد بدأت ، آنذاك ، جماعة «التجار» التقليديين تتعرف عن كثب على أروبا وأساليبها الحديثة ـ خاصة في ميدان المبادلات ـ وتحاول أن تقتبس منها وتستفيد من خبراتها • وبما أن هذه الطلائع البورجوازية المغربية كانت ، بحكم تكوينها وظروف نشأتها ، عاجزة عن منافسة البورجوازية الغربية ونفوذها الاقتصادي والسياسي ، وبما أنها كانت ، من جهة أخرى ، عاجزة ، نظرا لضعفها عددا وعدة ، عن القيام في المغرب بمثل الدور التاريخي الذي قامت به البورجوازية الاوروبية في بلدانها ، الشيء الذي جعلها تعيش مكرهة تحت رحمة الاوضاع الاقطاعية وشبه الاقطاعية القائمة والموروثة ، فانها ، نظرا لذلك كله،

بقيت مجرد بورجوازية هجينة ووظيفية ، تقوم بدور الوسيط للرأسمالية الغربية ، مقابل ما تستفيده من «سخرتها» هذه ، وأيضا من أجل أن تضمن لنفسها نوعا من الحماية يقيها ضربات المخزن (نظام الاحتماء) ٠

وعندما فرضت معاهدة الحماية على الشعب المغربي (١٩١٢) ، وأخذ جيش الاحتلال الفرنسي يوطد «الامن» في البادية المغربية ، وجدت طلائع بورجوازيتنا مجالا أوسع لكسب الربح ، وذلك عن طريق «شراء» الاراضي التي تركها أهل البادية الذين غادروا مواطنهم ـ خاصة في الضواحي القريبة من المدن الكبرى ـ تحت ضغط الاحتلال ، ثم استغلالها بواسطة «الخماسين» و «الرباعين» وأشباه الاجراء ، كما تمكنت أيضا من توسيع مجال مبادلاتها التجارية في المناطق البدوية الاخرى التي «استتب» فيها «الامن» ، ولم يغادرها أهلها ، أضف الى ذلك كله استفادتها من الاساليب الحديثة (المصارف، تغيير العملة ، طرق المواصلات ٠٠ الخ) التي بدأت سلطات الحماية الفرنسية في اقرارها ٠

كل ذلك جعل البورجوازية المغربية الناشئة تنتعش ، وفي نفس الوقت تزداد اعجابا بالحماة الجدد ٠ ولكن هذا «الاعجاب» لم يكن صافيا ولا تاما ٠ فالطلائع البورجوازية هذه ، تنتمي الى ارستقراطية تقليدية (تجارية ـ دينية ـ علمية ـ عقارية ـ مخزنية) لم يكن من السهل عزلها عن تراثها ، ولا فصلها عن العادات والتقاليد والاعراف التي كانت تشكل جزءا أساسيا من هويتها ، خصوصا والحماية الفرنسية تشكل ، بوصفها غزوا أجنبيا «نصرانيا» ، تحديا سافرا لقيمها وماضيها ومقومات الحضارة التي تنتمي اليها ، ولذلك بقي اعجابها بالاساليب الحديثة التي أدخلتها الحماية الى المغرب ، وانشراحها للآفاق الجديدة التي فتحتها لها أول الامر ، بقي كل ذلك مشوبا بالحذر والتحفظ ٠

وقد تأكد هذا التحفظ والحذر عندما بدأ الامر يستقر بالفرنسيين ، أى عندما أخذوا يقيمون مؤسسات تجارية واقتصادية صناعية فى البلاد ، وعندما أخذ المعمرون يستولون على الاراضى الخصبة ... عندئذ ضويقت البورجوازية المغربية فى مجالها الحيوى ، التجارى والزراعي بالخصوص ، فخاب ظنها ـ أو كاد ـ فى حسن نية الفرنسيين . وتأكد لديها أن ما كانت تحلم به من أن الحماية **ستأخذ بيدها** وتساعدها على النمو والتطور ، انما هو مجرد سراب . لقد اصطدمت بحقيقة مرة ، وهى أن البورجوازية الفرنسية أصبحت تضايقها فى عقر دارها ، بل وتهددها فى مصادر ثروتها .. فكان رد فعلها : **الاحتجاج ، والمطالبة بالحقوق والاصلاحات** .. الخ .. وتلك كانت **بداية قيام الحركة الوطنية المغربية** .

وعلى الرغم من أن الحركة الوطنية المغربية قد بدأت حركة اصلاحية ، تولت قيادتها البورجوازية التجارية والارستقراطية التقليدية ، وعلى الرغم من أن مطالبها لم تكن تتعدى أول الامر تطبيق بنود الحماية ، أى المطالبة بوفاء السلطات الفرنسية بما وعدت به من اصلاحات تمكن المغرب ـ وبالذات البورجوازية المغربية ـ من التطور السريع نحو وضع قار يسمح له بتسيير شؤونه بنفسه ، على الرغم من ذلك كله فان اتساع مجال دعايتها الى الاوساط الشعبية وخاصة اليد العاملة العصرية التى خلقتها المؤسسات الرأسمالية التى أقامها الاستعمار الفرنسي بالمغرب ، بالاضافة الى احتكاك القيادة الوطنية بالحركات التحريرية والاوساط الليبرالية فى الخارج ، مع ما رافق ذلك من انفتاح آفاق جديدة نتيجة الحرب العالمية الثانية .. ان ذلك كله ، قد جعل الحركة الوطنية المغربية تجذر من مطالبها وتطرح شعار **الاستقلال** ، الشعار الذى تجاوبت معه وتبنته كل القيادات التقليدية على اختلاف انتماءاتها ودرجات مسؤولياتها . وهكذا تكون حلف وطنى أخذ يتقوى باستمرار نتيجة ردود الفعل العنيفة التى قامت بها سلطات الحماية .

لقد كان هذا الحلف الوطني يضم البورجوازية المغربية الناشئة ، بقسميها التجاري والزراعي ، والارستقراطية التقليدية الدينية منها والعلمية والسياسية ، وجماهير الشعب المغربي بمختلف فئاته ·· ولقد زاد من **تماسك هذا الحلف** التجاء سلطات الحماية الى خلق **«قوة ثالثة»** قوامها جماعة من القواد والباشوات الاقطاعيين الذين جعلتهم عزلتهم المديدة في البادية يشعرون بذلك العداء التقليدي الذي كان يشعر به البدوي ازاء الحضري طوال فترات مهمة من تاريخ المغرب · لقد كانت هذه «القوة الثالثة» تشكل تهديدا خطيرا للبورجوازية الحضرية ، سرعان ما أدركت مغزاه ، **فاندفعت تتمسك بأذيال المخزن** ، بوصفه السلطة العليا الذي يرأس الكل ·

**في اطار هذا «الحلف الوطني» تشكل «فكر» هذه النخبة التي تولت زمام الامور غداة الاستقلال** · لقد كان هذا الحلف ثلاثيا : ١) البورجوازية الوطنية التي ظلت تقوم بدور الوسيط للرأسمالية الغربية ، وبالتالي بقيت تسير في ركابها اقتصاديا وايديولوجيا ، مع احتفاظها دوما برواسب ضبابية من الفكر الوطني التقليدي · ٢) الارستقراطية الدينية العلمية السياسية التي ظلت متمسكة بالفكر الوطني التقليدي كعملة صالحة للترويج في كل مناسبة · ٣) جماهير الشعب الكادح المحروم وأطره المناضلة التي قادت كفاح شعبنا في التحرير وتحقيق الاستقلال والتي بدأت تتفتح فكريا على التيارات التحررية التي هبت على العالم الثالث منذ بداية الخمسينيات ·

وبما أن هذا «التحالف الوطني» كان ـ **موضوعيا** ـ في صالح النخبة التي نتحدث عنها ، لانه مكنها من احتلال مركز القيادة جنبا الى جنب مع الزعامة الرسمية التقليدية ، فان كل همها كان ـ غداة الاستقلال ـ التوفيق بين مصالحها ومصالح هذه الزعامة بشكل يضمن ، في نفس الوقت ، ولاء الجماهير الشعبية ، وسكوت الاطر الشابة التي كانت قد بدأت تتحرك وتتساءل وتنتقد ···

واذن فلقد كان شغلها الشاغل هو ايجاد صيغ تمكنها ـ أمام المشاكل التى بدأت تبرز وتشتد ـ من **التوفيق** بين مصالحها ومصالح الطرفين الآخرين فى الحلف • **ومن هنا اكتسى فكرها ، وطريقة معالجتها للمشاكل ، طابعا توفيقيا ، يتجنب طرح المشاكل على حقيقتها ، ويحاول دوما البحث عن الحلول الوسطى ، عن الصيغ التوفيقية التى ترضى الجميع ، أو على الاقل تحمل الاطراف المختلفة على السكوت والانتظار ولو الى حين •**

من هنا ندرك الطبيعة التوفيقية لـ «**المبادىء**» التى أقرت كأساس لـ «مذهب» التعليم فى المغرب المستقل ، «**المبادىء الاربعة**» المشهورة : **التعميم ، والتوحيد ، والتعريب ، ومغربة الاطر** •

قبل ابراز الطابع التوفيقى لهذه «المبادىء» لنعرج أولا على المظهر ، أو المظاهر ، التى اكتساها التعليم فى بلادنا فى السنوات الاولى من الاستقلال •

★ ★ ★

لقد أبرزنا فى الحلقة الماضية الطابع الاستعمارى ـ النخبوى للتعليم فى المغرب على عهد الحماية ، وبينا كيف أن هذا التعليم كان بدون مردود ، فعلاوة على ضآلة نسبة القبول فى الابتدائى ، كان جل التلاميذ لايتمكنون من انهاء السلك الذى ينتمون اليه ، بل يطردون ، أو ينقطعون ، دون مستوى الشهادة الابتدائية ، مما جعل الآباء يدركون انه لا فائدة فى ارسال أبنائهم الى المدارس ، ما داموا سيغادرونها بعد سنوات ، دون الحصول على أية مؤهلات تضمن لهم وضعية أفضل عندما يلجون الحياة العملية • **لقد أدرك الآباء أن «المدارس» تفسد عليهم أبناءهم :** فلا هم يرونهم يتخرجون بمؤهلات علمية كافية ، ولا هم يستطيعون الاستعانة بهم فى أعمالهم اليومية ، والاحتفاظ بهم كمساعدين أو «عمال» بدون أجرة ، يشتغلون فى الحقل ، أو الدكان ، أو «المصنع» •

كان هناك ، اذن ، نفور عام من هذا التعليم ، الذى لايخرج سوى المشردين ، المتمردين على العائلة والتقاليد ، المحرومين من كل «صنعة» مفيدة • ولقد تقوى هذا النفور واكتسب صبغة عداء ، عندما تبين أن هؤلاء الذين يلتحقون بالمدارس «العصرية» يغادرونها دون أية معرفة بالدين والاخلاق ، بل كثيرا ما «ينحرفون» ويتنكرون سرا او علانية للتقاليد الموروثة (يلبسون اللباس العصرى ، يحلقون رؤوسهم على طريقة النصارى ، يدخنون ••) ، أضف الى ذلك أن مصيرهم بعد التعليم ، اذا ما تعلموا ، سيكون حتما العمل مع سلطات الحماية ، اما فى الادارة ، واما فى المؤسسات الرسمية أو شبه الرسمية ، الشىء الذى كان يؤهلهم لان يصبحوا متعاونين ، بشكل أو بآخر ، مع الحماية الفرنسية ، لا ثائرين ضدها •

واذن ، فلقد كانت هناك عوامل عديدة ، متداخلة متشابكة ، جعلت جماهير شعبنا تعرض اعراضا واسعا عن ارسال أبنائها الى المدارس الفرنسية ، لقد اكتسى هذا الاعراض عدة أشكال : فمن مجرد عدم الاقبال عليها ، الى مقاطعتها باصرار ، الى اخفاء الاولاد وتهجيرهم ، الى التحايل والاستعانة بالوسائط عندما يطلبون لتسجيلهم فى المدارس •

كانت هناك ، اذن ، **مقاطعة** شبه جماعية وشبه منظمة ـ خاصة فى الاوساط الشعبية ـ لمدارس الحماية • لم تكن هذه المقاطعة احتقارا للتعليم أو اعتقادا بعدم جدواه •• بل كانت نوعا من «**الكبت**» الارادى • أما «**البديل**» فلقد كان الانتظار •• **انتظار عهد الاستقلال** ، حيث سيتوفر المغرب على تعليم وطنى يلبى مطامح شعبنا فى التعليم والثقافة والشغل •

وهكذا ، فبمجرد الاعلان عن الاستقلال ، انفجرت هذه الرغبة «المكبوتة» لدى جماهير شعبنا ، رغبتها فى تعليم أبنائها ، واعدادهم للمستقبل المأمول ، فأصبحت المدارس تحاصر ليل نهار ، ولمدة أسابيع ، خلال بداية كل موسم دراسى عرفته السنوات الاربعة التى

تلت الاعلان عن الاستقلال ، تحاصر من طرف الآباء والامهات الذين ينتظرون تسجيل أبنائهم ، ويلحون على عدم مغادرة أبواب المدارس الا بعد الحصول على المقاعد المطلوبة ٠

لقد كانت ظاهرة غريبة حقا ، تلك التى عرفتها مدارسنا خلال السنوات الاولى من عهد الاستقلال ، لقد ترك الآباء اشغالهم ، وغادرت الامهات والاخوات منازلهن ، ليرابط الجميع ، ولمدة عدة أيام بلياليها أمام المدارس ، عند بداية كل موسم دراسى ، وأملهم الوحيد فى الحياة التمكن من تسجيل الاولاد فى قسم من أقسام المدرسة ٠

لقد فسرنا هذه الظاهرة الفريدة بكونها عبارة عن رغبة جامحة فى التعليم تم كبتها ـ ارٍاديا ـ خلال عدة سنوات ، وكان اعلان الاستقلال بمثابة «**تطهير**» لاسباب وعوامل هذا «**الكبت**» ٠ ويمكن أن نضيف الى ذلك كله عاملا آخر كان له أثره الكبير فى الاعداد لهذا الانفجار ٠٠ نقصد بذلك الدور الذى قامت به الحركة الوطنية ، وأساليبها فى تحميس الشعب من أجل مناهضة المستعمر والنضال من أجل الاستقلال ٠

لقد كان أسلوب الحركة الوطنية فى «**تشغيل**» الجماعات الحزبية يعتمد فى الاعم الاغلب على **الدعاية والتحميس** والوعظ والارشاد ، أكثر من اعتماده على طرح المشاكل الموضوعية ومناقشتها، وتوعية الجماهير بحقيقة الاوضاع القائمة وآفاق النضال الذى يتحتم خوضه فى معركة بناء الاستقلال ٠ لقد لجأت بعض الاطر الحزبية ، وحتى القيادة نفسها ، الى أسهل الطرق ، والى أشدها ضررا ، فى نشر «الوعى» الوطنى وتعميمه ٠ وهكذا طرحت للتداول ، وبشكل واسع ، نعوت «الكفر» و «الزندقة» و «الخيانة» لتلصق ، بحق أو بغير حق ، بكل من «ينحرف» قليلا أو كثيرا عن الركب الذى تقوده الحركة الوطنية ، سواء كان هذا «الانحراف» داخل الركب أو خارجه٠ وبالمقابل كانت الصورة البديلة التى تعطى للجماهير الحزبية عن مغرب الاستقلال المنتظر ، لايماثلها فى بريقها الا صورة الجنة التى

وعد الله بها عباده المتقين • وفي هذا الصدد ترسخ لدى جماهير شعبنا انه بمجرد الاعلان عن الاستقلال سيجد **كل الاطفال** المقاعد الخاصة بهم في مدارس وطنية حقة ، كما سيجد كل جائع أو فقير **الخبز** الذي يكفيه ويكفي أولاده (١) •

هذا النوع من الدعاية الرخيصة قد أخفى على جماهير شعبنا ، ولربما حتى على القيادة نفسها ، حقيقة المشاكل التي ستطرح غداة الاستقلال ، وبالتالي فان هذه الدعاية قد هيأت الجو لحدوث ذلك الانفجار ، انفجار الرغبة الشعبية الملحة في تعليم الابناء ، تلك الرغبة التي عبرت عن نفسها ، وبكيفية عملية ، **بمحاصرة المدارس ليل نهار ، المحاصرة التي شكلت أول ضغط جماعي من طرف الجماهير على الحاكمين آنذاك** •

★ ★ ★

قد تصلح هذه العوامل السيكولوجية مجتمعة ، لتفسير ظاهرة «الانفجار التعليمي» الذي نتحدث عنه • **ولكنها في الحقيقة لاتفسر الا مظاهرها السطحية • أما الاسس الموضوعية لهذه الظاهرة الاجتماعية فيجب أن نتلمسها في الميدان الاجتماعي نفسه ، ميدان العلاقات الطبقية** •

لقد جمع هذا الحلف الوطني الذي تحدثنا عنه قبل قليل ، جنبا الى جنب ، البورجوازية «العصرية» ، والارستقراطية التقليدية ، و «الطبقات» الوسطى ، والجماهير الشعبية المحرومة • ان الكفاح الوطني يخفي دوما الصراع الطبقي • ان التناقض الاساسي، يومذاك، كان بين المغاربة ككل ، وبين الحكم الاجنبي المتمثل في نظام الحماية،

---

١ ـ لقد انتشرت دعاية حزبية داخل «الجماعات» مفادها أن مدخول الفوسفاط يكفي وحده لضمان العيش اليومي لجميع أفراد الشعب المغربي . وانه سيكون بالامكان، بمجرد الحصول على الاستقلال ، أن يتوصل كل فرد ، وكل صباح ، بمبلغ ألف فرنك ، كنصيبه من عائدات الفوسفاط ••!

أما التناقضات الطبقية فلقد بقيت ثانوية هامشية ، تتمظهر ، عندما تشتد ، بمظهر «الصراع العنصري» ، وأحيانا بمظهر التقليد والرغبة في تسلق السلم الطبقي ٠٠ لقد كان من الممكن أن ينفجر هذا الحلف الوطني ، بفعل تناقضاته الطبقية الخفية لو أن مسيرة الكفاح من أجل الاستقلال طال بها الامد مدة كافية لتحويلها الى ثورة حقيقية ، ثورة يلعب فيها الصراع الطبقي دورا أساسيا ، لو أن الفرنسيين لم يسارعوا الى اعداد طبخة «ايكس ليبان» تحت تأثير الخوف من امتداد لهيب الثورة الحقيقية الى كل من تونس والمغرب ، بعد قيام الثورة الجزائرية ٠

لقد عمد الفرنسيون الى حل المشكل مع المغرب وتونس حلا سياسيا وسطا ، وبالتالي أجهضوا الثورة المغربية في مهدها ٠ وقد ساعدهم على ذلك عاملان أساسيان : **أولا** تمكنهم من انشاء «قوة ثالثة» استعملوها كتهديد للحركة الوطنية وقيادتها ، وبالتالي فرض الحل الذي يريدون ٠٠ **ثانيا** طبيعة التركيب الاجتماعي للحركة الوطنية نفسها ، وعدم توفر قيادتها البورجوازية على جذور عميقة تمكنها من مواصلة قيادة المسيرة النضالية ، وبالتالي استعدادها للتنازل وقبول «الحل الوسط» ، قبل أن تفلت الامور من أيديها ٠

ومهما يكن ، فان الاعلان عن الاستقلال بالشكل المعروف ، كان لابد أن يحرك التناقضات الطبقية داخل الحلف الوطني ، خصوصا والاستقلال يعني استلام القيادة البورجوازية زمام السلطة في المجتمع ، الشيء الذي كان لابد أن يعمل على الكشف عن الطابع الانتهازي المصلحي لعدة عناصر قيادية ، في الحركة الوطنية بقسميها البورجوازي «العصري» ، والارستقراطي التقليدي ٠

لقد بدا واضحا للجماهير الشعبية ، غداة الاستقلال ، أن ما كانت تحلم به نتيجة الوعود البراقة التي روجتها قيادة الحركة الوطنية ، لم يكن سوى سراب ٠ وبما أن وعيها الطبقي كان ضعيفا خافتا ، فانها لم تتردد في ربط السلطة وبالتالي الغنى ، بالتعليم :

ان الذي مكن النخبة من ثروتها ، وأهلها لاستلام مراكز المسؤوليات، كان في المنظور الجماهيري آنذاك ، **هو التعليم** ·

واذن ، **فان «الانفجار التعليمي» الذي نتحدث عنه ما هو في حقيقته وجوهره سوى شكل من أشكال الصراع الطبقي** · لقد أدركت جماهير شعبنا ، بوعيها الساذج آنذاك ، أن مفتاح الحصول على وضعية مادية ومعنوية لائقة ، وان الطريق الى السلطة والنفوذ ، بمختلف مستوياتهما ، هو التعليم · ولذلك بادرت بالدفع بأبنائها ، جملة ، الى المدارس ، مصرة على قبولهم فيها ، سواء توفرت المقاعد أو لم تتوفر · لقد ترسخ في ذهن الجماهير الشعبية أن الحصول على مقاعد مدرسية لابنائها يعني ضمان تأهيلهم لتولي المناصب الادارية والوظائف الحكومية · لقد ظل التعليم لدى الشعب المغربي غداة الاستقلال خاضعا لهذا التصور : **تلميذ اليوم هو حاكم الغد** ·· ذلك ما تنبهت اليه ، خلال عهد الحماية ، البورجوازية المغربية · وهذا ما أدركته أخيرا الجماهير الشعبية ·

★ ★ ★

لقد وجدت النخبة الحاكمة نفسها ، غداة الاستقلال ، أمام هذا الضغط الشعبي الجارف الذي يفرض نوعا من «اجبارية» التعليم · وبطبيعة الحال لم تكن تخفى عليها الدلالات السياسية والطبقية لهذه الظاهرة · ولذلك وجدت نفسها مجبرة على البحث ، بسرعة ، عن حلول لهذا المشكل ، قبل أن يتطور الامر «الى ما لاتحمد عقباه» ·

فما هي ، اذن ، **هذه الحلول ؟**

يمكن التأكيد من الان انها ستكون من النوع **التوفيقي** ، الذي يلائم طبيعة «فكرها» ، وانها ستكون كذلك حلولا سريعة ارتجالية ، سطحية ومؤقتة · وهذا ما حصل بالفعل ·

**من الناحية العملية :** اضطرت الحكومات الاولى ، غداة الاستقلال ، الى قبول أكثر ما يمكن من التلاميذ فى المدارس الابتدائية، مما جعل تعليمنا الابتدائى يقفز ، من حيث الكم ، قفزة هائلة (١) ، أما الوسائل التى استعملتها فكانت كما يلى :

ـ **من حيث الحجرات :** استعملت البنايات المدرسية التى كانت قد بدأت سلطات الحماية فى بنائها قبل الاستقلال ، بالاضافة الى بنايات مدرسية أخرى كانت مخصصة للتعليم الذى من النوع الاروبى ، والتى كانت البعثة الثقافية الفرنسية قد بدأت فى تسليمها تدريجيا لوزارة التعليم المغربية ٠٠ على أن أهم وسيلة مكنت الحكومة المغربية من الاستجابة للضغط الشعبى حول الدارس، هو احداث **نظام التناوب ونصف الحصة** ، حيث أصبحت الحجرة الواحدة تستقبل يوميا فوجين أو أكثر من التلاميذ ، وهو نظام مازال العمل جاريا به الى الان فى بعض الاقسام الابتدائية ٠ وسنعود الى الحديث عنه فى حلقة مقبلة ٠

ـ **من حيث الاطر التعليمية :** عمدت وزارة التعليم الى توظيف كل من «يحسن» القراءة والكتابة بالعربية أو الفرنسية ، صغارا كانوا أو كبارا ، عاطلين كانوا أو محترفين لمختلف المهن الحرة ٠ لقد كان كل من يحمل الشهادة الابتدائية ، أو يأنس من نفسه انه فى مستواها يلتحق كـ «معلم» فى المدارس الحكومية ٠ وقد أحدثت دورات تكوينية لهؤلاء قصد تزويدهم بشىء من المعلومات العامة و «الاساليب البيداغوجية» فى اطار ما كان يسمى بـ «التكوين السريع» ٠

لقد فرضت جماهير الشعب على المسؤولين نوعا من «اجبارية» التعليم ، ليس فقط بالنسبة للاطفال الصغار الذين هم فى السن

---

١ ـ سندرس تطور التعليم فى المغرب من حيث الكم منذ الاستقلال الى اليوم فى حلقة قادمة ٠

«القانونى» ، بل أيضا لمختلف الاطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد ، وقد وقع التفكير ، بالنسبة لهؤلاء ، فى احداث «سلك للانقاذ» خاص بهم ، كما نظمت وعلى نطاق واسع دروس لمحاربة الامية ·

ان فتح المجال لاكبر عدد ممكن من التلاميذ ليلتحقوا بالمدارس ، كان ، بطبيعة الحال ، خطوة أولى عملية نحو «**تعميم**» التعليم · كما أن توظيف كل مغربى «يحسن» القراءة والكتابة ليقوم بمهام التدريس ، كان أيضا خطوة أولى عملية نحو «**تعريب**» التعليم ، باعتبار أن جل الذين التحقوا بالتدريس كانوا من الذين يعرفون العربية وحدها ، أما مزدوجو اللغة أو الذين يحسنون الفرنسية فلقد التحقوا بالادارات والوظائف الاخرى التى كانت تمنحهم أجورا أحسن ·

واذا أضفنا الى هذا أن هذا القبول الواسع فى التعليم الرسمى يعنى فى حقيقة الامر الدفع بالتعليم الحر والتعليم الاصلى الى نقطة هامشية نائية ، على خريطة تعليمنا ، أدركنا أن «**توحيد**» التعليم قد فرض ، هو الآخر نفسه ، على صعيد الواقع ·

واذن فلقد فرض الضغط الشعبى ، فى ميدان التعليم ـ بكيفية عملية ملموسة الاجراءات التالية التى تمت أول الامر بشكل عفوى آلى : تعميم التعليم ، تعريبه ، مغربة أطره ، توحيده ·

وهكذا نرى أن ما سمى فيما بعد بـ «الاختيارات» الاساسية لـ «سياستنا» التعليمية ، والمعبر عنها بـ «المبادىء الاربعة» : (التعميم ، التوحيد ، التعريب ، مغربة الاطر) **هى فى الحقيقة «اختيارات» فرضها الواقع قبل أن تقرر بكيفية رسمية ·**

أما من الناحية النظرية ، أى من **ناحية «التخطيط»** الذى واجه به المسؤولون هذه المشكلة ، مشكلة التعليم ، التى فرضت نفسها ، على الرغم من تزاحم المشاكل الاخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فلقد تشكلت لجنة لمعالجة شؤون التعليم واقرار أسس «مدرسة

وطنية» و «مذهب تعليمي» تلك هي **«اللجنة الملكية لاصلاح التعليم»** التي عقدت أول اجتماع لها يوم ٢٨ ـ ٩ ـ ١٩٥٧ (هي في الحقيقة احياء للجنة تحمل نفس الاسم شكلت أثناء الحماية ، وعقب الحرب العالمية الثانية ، ولكنها فشلت في مهمتها ، خاصة بعد أن عدل الفرنسيون عن سياسة «التفتح» التي سلكها اريك لابون ـ انظر الحلقة الماضية) ٠

لقد كانت هذه اللجنة تضم خليطا من الشخصيات السياسية والثقافية والدينية ، يعكس تركيبها مختلف الاتجاهات التي كانت تتصارع في «النخبة» القيادية ، داخل الحلف الوطني المذكور ٠ وقد خرجت اللجنة من دراستها لمشكل التعليم بـ «اختيارات أساسية» هي «المبادىء» الاربعة المذكورة : (التعميم ، التوحيد ، التعريب ، مغربة الاطر) ٠ **لقد جاءت هذه «الاختيارات»** ـ كما سنوضح بعد قليل ـ **تعكس الطابع «التوفيقي» لفكر هذه النخبة ، بقدر ما تعبر عن أمر واقع فرض نفسه** ٠ أما البحث عن الحلول الصحيحة الجذرية، أما ايجاد تخطيط محكم ، فذلك ما لم يكن في امكان هذه اللجنة العثور عليه ، بل حتى التفكير فيه ٠ فمصالح أفرادها مختلفة ، ورؤاها متباينة ، ومشاغلها الحقيقية لم تكن التعليم بقدر ما كانت أشياء أخرى «أهم» من التعليم ٠ ولذلك لجأت الى حل «توفيقي» وسط ، يرضي ميول الجميع ، ولكنه لايطرح المشكل بالشكل الذي كان يجب أن يطرح به ٠

**ان الطابع «التوفيقي» لهذه «المبادىء» واضح تماما : فالتعميم** يرضي رغبة الجماهير في تعليم أبنائها ، و **التوحيد** يرضي ذوي الميول العصرية وأصحاب الميول التقليدية سواء بسواء ، لان بامكان كل منهما أن يفهم منه ما يرضي اتجاهه ٠ واذا كان «التعميم» كمبدأ وكواقع يميل الكفة نحو المدافعين عن التعريب ، باعتبار أن الخطوة التي تمت في ميدان التعميم استلزمت أوتوماتيكيا تعريبه من أسفل،

فان مبدأ «مغربة» الاطر لايلغي **الازدواجية** ، وبالتالي يميد ميل الكفة للاتجاه المضاد ·

لقد أقرت هذه «المبادىء» في **جو المعارك «الصامتة»** التي كانت تجري بين الاتجاهات المختلفة داخل الحلف الوطني الذي كان مايزال قائما آنذاك · ورغبة من الجميع في استمـرار «صمت» المعركـة ، حفاظا على وحدة الصف التي كانت تهددها القوات المناوئة، والمشاكل المتفاقمة ، لم تطرح للمناقشة ــ والى يومنا هذا ــ طبيعة **العلاقة** التي يجب أن تقوم بين هذه «المبادىء» الاربعة ، وبالتالي لم تطرح **مسألة الاسبقيــة** ، ولا كيفية **تطبيــق** هذه «الاختيـارات» ولا **الخطـوات المرحلية** ·· شأن الحلول التوفيقية دائما ·

لقد كانت هذه «المبادىء» ــ كما قلنا ــ تعبيرا أو تنظيرا لواقع فرض نفسه ، فترك أمر تطبيقها لتموجـات الحاضر والمستقبـل ، الشيء الذي أدى الى فسح المجال للارتجال والتخبط والتراجع وغير ذلك من المظاهر التي سادت تعليمنا منذ الاستقلال الى اليوم ·

وقبل تتبع مختلف «التموجات» التي عرفها تعليمنا منذ الاعلان عن الاستقلال الى اليوم ، لنلق نظرة عجلى على هذه «المبادىء» التي رصفت رصفا ، والتي كثيرا ما تتم الاشادة بها ، **باعتبارها «مبادىء سامية»** صالحة ·

انها فعلا مبادىء سامية ، ولكن رصفها بهذا الشكل ، دون بيان علاقة بعضها ببعض وبالتالي دون تحديد ، من السابق فيهـا مـن اللاحق ، يجعل أمر تطبيقها خاضعا للصدفـة ، مرهونـا بتقلبـات الاحوال ، ومن ثمة فانه لايمكن القول انها تشكل «اختيارات أساسية» لـ «مذهب تعليمي» حقيقي ·

**لنناقش** أولا المبدأين التاليين : **تعريب التعليم ، ومغربة الاطر**، ولنتساءل : هل هناك ما يستوجب الفصل بينهما وجعل كل منهمـا

«مبدأ» قائما بنفسه · ان التعريب يتضمن حتما مغربة الاطر · فلماذا لم يكتف بمبدأ التعريب وحده ؟

الواقع أن وضع مبدأ مغربة الاطر جنبا الى جنب مع مبدأ التعريب ، لايمكن أن يفسر الا على انه اجراء يقصد منه اقرار مبدأ تكوين الاطر باللغة الفرنسية ، وبالتالى استمرار الازدواجية ، وترك التعريب مجرد شعار أجوف للاستهلاك لا أقل ولا أكثر ·

يتجلى هذا بصورة أوضح اذا نظرنا الى هذين المبدأين فى علاقتهما بمبدأ «التوحيد» · وفى هذا الصدد نتساءل أيضا : هل هناك ما يستوجب الفصل بين «التعريب» و «التوحيد» وجعل كل منهما مبدأ قائما بنفسه ؟ أليس توحيد التعليم نتيجة حتمية لتعريبه؟ ان تعريب التعليم يلغى بكيفية آلية تعدده ، لان مصدر هذا التعدد هو الازدواجية ··· ولكن توحيد التعليم لايتضمن حتما تعريبه ، اذ من الممكن تحقيق «التوحيد» فى ظل الازدواجية ، وهذا ما تم فعلا ، أو يكاد ·

لننظر الان فى علاقة هذه المبادىء الثلاثة بالمبدأ الاخير : «التعميم» ولنساءل على الفور : هل يمكن تعميم التعليم فى المدن والبوادى تعميما جديا عمليا دون توفر العدد الكافى من الاطر المغربية المعربة ؟ وبالتالى هل يمكن ـ عمليا ـ تعميم التعليم دون تعريبه ؟ هل من الممكن الاعتماد على أطر غير معربة ، أجنبية كانت أو مغربية ، فى نشر التعليم والثقافة فى البادية المغربية من أقصاها الى أقصاها ، فى جبالها وسهولها وصحرائها ؟

واضح ، اذن ، ان «المبادىء» الاربعة ، لاتصلح **منفصلة** لان تكون أساسا لسياسة تعليمية جدية ، كمذهب تعليمى وطنى· وذلك لسبب بسيط ، هو أن هذه «المبادىء» ليست فى الحقيقة مبادىء أو أسسا ، أو اختيارات جدية ، **وانما هى حلول توفيقية وسطى توفق بين الاتجاهات السائدة وتعكس أمرا واقعا فرض نفسه ·**

**انها مبادىء تكرس التعدد والازدواجية وتفسح المجال واسعا للتراجع عن التعريب بدعوى مغربة الاطر أولا ، وعن التعميم بدعوى انخفاض المستوى بسبب التعريب ، وعن التوحيد بدعوى فتح المجال للمدارس الحرة والتعليم الاصلي ليساهم كل منهما في «تعميم» التعليم ، مما يهيء تعليمنا لان يبقى دائرا في حلقة مفرغة ، متخبطا ذات اليمين وذات الشمال ، كما حدث بالفعل ، وما زال يحدث الى الان • والنتيجة الملموسة هي رجوعه الى ما كان عليه أيام الحماية ، أي استمرار كونه تعليما للنخبة •**

وبعد ، فهل كان بامكان المسؤولين أن **يفعلوا غير ما فعلوا ؟** مهما يكن الجواب عن هذا السؤال ، فان الشيء المؤكد هو أن الوضعية التعليمية كانت تتطلب آنذاك ، كما تتطلب اليوم ، **القيام بثورة ثقافية واسعة شاملة** ، كانت تستلزم حلولا جذرية أصيلة ، ولكن هل يمكن القيام بهذه الثورة الثقافية ، والعثور على هذه الحلول الجذرية في ظل أوضاع **لم تتحقق فيها الثورة الاجتماعية والتغييرات الجذرية الضرورية ؟**

لم يكن استقلال المغرب نتيجة ثورة ، ولا وليد حرب تحريرية طويلة الامد ، وانما كان نتيجة حلول وسطى توفيقية ، كانت اجهاضا لثورة كانت في طور المخاض • فبقي النزيف ، نزيف الاجهاض ، يغذى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية الى اليوم •

---

## اصلاح •• واعتذار

في مقال : أضواء على مشكل التعليم بالمغرب الذي صدر في العدد الرابع من المجلة وقع خطأ في «التصفيف» الرجاء مراجعته على الشكل التالي :

في ص ١٢ ـ الاسطر ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨ مكانها يأتي في ص ١٣ بعد السطر الاول •

ومع كامل الاعتذار •

محمد السرغيني

# روزنامة الحدس و الفراسة

## وليمة . . .

وجهان لو حضرا الوليمة ، عاركا الاشباح ، واتخذا سبيلهما الى الباب العلي ، (فيا رحاب المشار الشمطاء تزخر أرضك المعطاء بالنارنج ، والزهرى ، «والكيف» ٠ ) ٠

الصوت المتميز الاول :

لسرى تيار الفجر فى الاسلاك والهاتف

الصوت المتميز الثانى :

فى الآمن ـ الخائف

ـ فى كل أوردة النيون على قباب الليل ، فى علب المدينة

ـ فى قمرة الناجين من غرق السفينة

ـ فى كل شارات المرور، وفى محطات الجمارك

ـ فى العائدين من المعارك

ـ فى اللافتات، وفى بروج حراسة الشطآن

ـ فى محبس الاعمى بدير معرة النعمان

ـ فى ردهة الثكنات ، فى صفارة الانذار

ـ في حفلة الاعذار
ـ في غمرة الغارات ، في تمديد حبالات الطوارىء
ـ في شحن باخرة الرقيق الى الموانىء
ـ في خفقة الاشعاع من رئة المنار
ـ في النازحين وراء أجنحة المطار .

وجهان لو حضرا الوليمة ، قارعا الانخاب ، لو شربا على ذكر الذى يأتى ليخلع هامة «الخفاش» عن صدر ينوء بعبء نيشان الرضى، ووسام الاستحقاق مع حمالة الشرف الرفيع . (شجاعة «الخفاش» تأتى بالخوارق فى حروب الردة العزلاء بالريف) .

الصوت المتميز الاول :

لوهت حبال الدوم والقنب

الصوت المتميز الثانى :

فى صفرة الاغلال ، فى المسمار والمشجب
ـ في باحة «الكتيبة» الحمراء
ـ في الليلة القمراء .

القاتل ـ المقتول يقتل مرة أخرى بخنجره . يعلق نصبه التذكارى الموبوء فى الساحات والابناك والحانات ، فى النافورة الضوئية الكبرى . (تقول الموت : لولا الموت لانقطعت حبال الوصل بين الله والانسان) ينهض شاعر عريان من أنقاض ديوان الحماسة يكتب الاسم القتيل على جباه القصر مسكا للختام . (ويسلم الشرف الرفيع من الاذى . تتساقط الانساب فوق عروشها . يتعمد التاريخ من ماءين) .

القاتل ـ المقتول يقطر بالصديد (... وضيقت حبات سبحته على الجيد الخناق ...) (... تفيض باسمك يا اله الخصب لائحة القبور وأنت فيها الظاهر ـ الباطن) . (الراحل ـ القاطن) .

القاتل ـ المقتول ... (يا سفن النجاة حرقت ، دونك رغـوة الزبد الذى يمضى جفاء) ... حملة التطهير تبـدأ بعد عامين مـن «ياءين» أو «باءين» ..

تتعقب الابر ـ العيون حلوله الصوفى (فاقعد أنت أنت الطاعم الكـاسـى) فـى الحـلاج والحجـاج . تنسـل أعينـا أخـرى . تحاصره العيون ، وتنشب الاظفار فى شعر العمائـم واللحى ، فـى السيف والجبة .

تأتى الرياح بما تحب سفينة الجودى لما يفصد الطوفان شريانيه فى الاسواق والمدن الحزينة . (يا رمال الشاطىء الصخرى !.. مـن أدراك ؟ ان حوافر القصر المنيف تغوص فى وحل الرمـال) وينقـر الناقور فى الصور .

يتعانق الحيزوم والصارى ، وتقتعد السفينة كرسى التيـار . يرسب ذلك «الخفاش» أو يطفو . يمد الى العباب طموحه العارى من كفين ترتعشان . (يا طوق الاغاثة وجهك المجذور سد الباب فى وجه الصراخ المستغيث) ويغرق «الخفاش» أنى كان خلف السور أو مـن خلفه السور .

تنمو ، تسيل مقامع الطوفان .

كأصابع الحنظة .

«قارورة التعذيب تنكر أو تقر . مخافر الشرطة .

تسعى على قدمين أو تسعى على سيفين .

كلب الحراسة شاعر القصر الخصى يخونه التعبير ، ينضب من قريحته الهجاء ـ المدح ، (أصوات الزجاج ، مرونة المطاط ، حجم الشمع) يبقى فى رحاب القصر مأسور المهـارة فى مسـار السمـع والطاعـة .

يمتد عمر الصيف صيفين ·

تتدفق القنوات بالجرذان قبل قيامة الساعة ·

فتخر أركان الضريح على الذى سكن الضريح ، (فنور اللهم مثواه) وتسقط هامة القبة ·

يمتد حبل الود بين الفرس واليونان ·

تتفجر الآبار من طروادة ·

تأتي العمائم واللحى بالسادة ـ السادة ·

حسب الذى تقضى به العادة» ·

صفرو : ٢٦ ـ ٧ ـ ١٩٧١

محمد زنيبر

# مفهوم الاصالة في ثقافتنا القومية

- ٣ -

المشاكـل الباطلـة :

ان نصف الطريق نحو الحل الصحيح يكمن فى معرفة المشاكل على حقيقتها كما أن معرفة الدواء بالنسبة للطبيب تقتضـى معرفـة الداء بدقة • حكمة بديهية طالما يتجاهلها البعض ممن ينحنون علـى مشاكل المجتمع ويقترحون لها الحلول • فهم يعيشون بفكرة تبسيطية عن حياة الجماعة تؤدى بهم الى رؤية كل عمليـة تغيير فـى صيـغ ميكانيكية محدودة ومحفوظة لاتترك أى محل للمفاجأة أو ، بالاحرى ، تتعامى عن كل ما لايدخل تحت الرؤيا المختـارة ، ولو كان مهمـا ، ويترتب عن كل ذلك اختلال فى الكشف عن المشاكـل وتحديدهـا بالدقة التى يقتضيها العمل المنتج الفعال فى سبيل البحث عن حلهـا وتجاوزها •

ومن جملة المشاكل الباطلة ، المقابلة التى تقام فكريا لا واقعيا بين الدخول فى عهد التصنيع وفكرة الاصالة الوطنية • وقد تصدى

لهذا الموضوع الصديق عبد الله العروى فى كتابه : «الايديولوجية العربية» فوقف عنده وقفات بسط فيها نظريته بكل وضوح • ومع كامل تقديرى للمجهود الفكرى الذى يبذله عبد الله العروى فيما ينشر ، فانى أجد من الصعب قبول بعض الاستنتاجات التى توصل اليها فى «الايديولوجية العربية» • فهو يبنى نظريته على أساس يدعو للمناقشة من الاول • كيف يتراءى له المجتمع العربى المعاصر ؟ كمجتمع قائم فكريا على ثلاثة ركائز : الفقيه التقليدى ، المثقف الليبيرالى ، التقنى المتعصب لتقنيته •

وبالطبع ، ان أى واحد من هؤلاء الثلاثة ، ما دام فى قوقعته ، لايستطيع أن يتسلح بالرؤيا الكافية لمجتمعه • بل انهم ، اذا التقوا ثلاثتهم ، لايستطيعون أن يحصلوا على هذه الرؤيا • وهذه النماذج الثلاثة التى كشف عنها العروى فى كتابه ليست خاصة بالمجتمع العربى ، بل هى موجودة فى المجتمعات الاروبية ذاتها حيث يلتقى رجل الكنيسة مع الديموقراطى الليبيرالى والخبير التقنى • صورة حية واقعية نجدها فى باريس أو لندن أو روما •

ولكن هناك عنصر رابع لم يتحدث عنه العروى ويلعب الدور الاساسى فى تكوين الايديولوجية العربية وأعنى به الجماهير • وسيعترض على هنا البعض قائلا : ما شأن الجماهير والايديولوجية ؟ أليست الامية متفشية فيها ؟ أليست أغلبيتها منعزلة فى الارياف والفيافى تكابد من العيش كل مشقة وبؤس ؟ فمن أين لها أن تفكر ومتى يتسنى لها ذلك ؟

اعتراض سطحى لانه لايدخل فى حسابه الواقع اليومى ولا يحتك بحياة الناس العاديين فى شوارعهم وبيوتهم ويبقى صدى لتلك الاقوال التى تخرج من نوافذ الابراج العاجية • كلا ، ان الجماهير تفكر أحسن تفكير ، ولكن دون أن تكتب وتتحذلق فى ابلاغ ما تجده فى نفسها • ولو استطاع باحث اجتماعى أن يسجل ـ بقدرة قادر ـ ما يروج فى يوم واحد ، وفى مدينة واحدة ، بين الناس من كلام

ونقاش فى شؤونهم المختلفة ما بين شخصية وعامة لاستطاع أن يجمع مادة خصبة من التفكير الحى الذى يتصل بكل مشاكل المجتمع ويطرح علينا الاسئلة الاساسية التى تنتظر الجواب . واذا كانت الجماهير لاتبلغ تفكيرها عن طريق الكتابة ، فانها تبلغه بوسائل أخرى أو ، بالاحرى ، بلغة أخرى لاتنحصر فى مادة الكلام ، بل ان بلاغتها الحقيقية تتجسم فى ذلك الصراع الدائم من أجل العيش ، من أجل تحقيق المطالب الطبيعية للانسان وكسر القيود التى تحتجز الحريات. وهذا الصراع الجماعى هو الذى يضع الفقيه والليبيرالى والتقنى فى حالة بلبال وحيرة ويجعلهم غير مرتاحين باطنيا لطريقتهم فى التفكير ومحتاجين دائما الى تبرير موقفهم العقلى ، بحيث ان هؤلاء الثلاثة بحكم موقفهم الدفاعى المحافظ لايستطيعون أن ينتجوا أى ايديولوجية حية يتراءى فيها المستقبل واضحا ومغريا . ولذلك ، فمن العبث أن نبحث عن الايديولوجية العربية عندهم .

ولكن ، ليس معنى هذا أن مهمة التفكير فى المجتمع العربى المعاصر تنحصر فى هاته النماذج الثلاثة ، كما يفهم من كلام العروى. بل هنالك نوع رابع لم يشر اليه مع أنه مهم ويتمثل فى ذلك الرجل الذى يعيش قرب الجماهير ويشاركها ولو روحيا فى حياتها وتطلعاتها . فالنقابى والمسير السياسى الذى يرتبط بالجماعة المناضلة والباحث الاجتماعى ، كل هؤلاء يمثلون نوعا آخر من المثقف والمفكر فى المجتمع المعاصر .

واليهم يرجع الفضل ، اليوم ، فى الكشف عن بعض الادواء المزمنة فى المجتمع العربى المعاصر وفى اقتراح بعض الحلول للمشاكل المطروحة بالحاح . نعم ، انهم لا زالوا فى بداية الطريق ، طريق البحث والالتحام بالواقع ، ولكن هذا لايطعن فى الاتجاه والمنهاج لذى اختاروه . ذلك أن مشاكل من هذا الحجم والمستوى لا يمكن اكتشاف حلها فى جيل واحد أو جيلين . ولقد انتظرت أوربا أكثر

من ثلاثة قرون بعد النهضة ، قبل أن يظهر فيها (هيجل) و (ماركس) وجميع المفكرين الذين حاولوا أن يفهموا حضارتها ويفسروا تاريخها •

وانى موقن أن المفكر العربى الناضج سيظهر مع توسع التجربة الاجتماعية العربية المعاصرة وتخلصها من ضجيج الالفاظ وتزاحم الافكار والنظريات المسبقة • ومع ذلك ، فيمكننا القول منذ الان أن أولائك الذين يناضلون قولا وفعلا فى سبيل التحرر العربى هم ، فى نفس الوقت ، الذين يهيئون بكيفية عملية ، فى نطاق التلاحم مع الجماهير ، ما نستطيع أن نسميه «الايديولوجية العربية المعاصرة» ، ولا يبقى بعد هذا للفقيه والليبيرالى والتقنى الا دور ثانوى أو سطحى • والتجربة التى نعيشها الان تبرهن على أن هؤلاء الثلاثة يحكمون على أنفسهم بالغربة والانعزال داخل المجتمع بقدر ما يبتعدون عن الجماهير ويتجاهلونها ، ولا تبقى لهم آنذاك أى صبغة تمثيلية للجماعة التى ينتمون اليها • فهم «حالات» فردية يجب أن ترى على هامش التطور العام ، كلما رفضوا أن يندمجوا فى مجتمعهم وأن لعبوا دورهم التاريخى •

### التصنيع والاصالة :

ومن جملة التجارب الحاسمة التى لابد لمجتمعنا أن يمر منها قبل أن يستطيع تحديد ايديولوجيته الانتقال من الاقتصاد الفلاحى الى الاقتصاد الصناعى • فالمجتمع الصناعى يمثل طورا آخر أكثر تعقيدا من المجتمع الفلاحى ، ويستلزم تحليلا جديدا للعوامل التى تؤدى تارة الى الركود وتارة الى التحرك داخل الجماعة • ولكن الى أى درجة يمكن للتصنيع اذا ما تغلغل فى مجتمعنا أن يمس بأصالتنا؟

هنا كذلك نجد عبد الله العروى يحاول أن يقيم الدليل على أنه لابد لنا من الاختيار بين التصنيع أو الاصالة ، وأنه لايمكن الجمع بينهما • ولنترك له الكلمة يوضح نظريته :

«فى هذا النقاش القائم حول الثقافة القومية الذى أشرنا اليه آنفا يحتج الطرفان على بعضهما بالكتاب الاجانب الذين يستندون اليهم في رأيهما • فيعتب الاول على الثانى استدلاله بسارتر وكامو، بينما يجيب الآخر : «أنت ، أيضا ، تذكر فولتير وروسو وديدرو» ، هذا بدون الانتباه الى كون هؤلاء المؤلفين لايمكن ان تكون لهم بحال من الاحوال نفس الاهمية فى مجتمعهم وفى مجتمعنا • هذا الموقف التلفيقى ، العام والدائم ، لايمكن فهمه وتفسيره الا اذا اعتبرنا كل فكرة يعبر عنها عندنا ، غير قائمة لذاتها ، بل من الضرورى ارجاعها لمهدها التاريخى الاول ، سواء أكان يوجد فى العرب أم ورد بواسطة الشرق •

« وان مفهوم هذا المستقبل المقدم ـ أى مستقبل وقع تخطيطه فى مكان آخر ولا حرية لنا فى رفضه ـ هو الذى يفسر فى المجتمع العربى ما يتسم به من تلفيقية فى التفكير ، وتقاطع بين الواقع المجتمعى والوعى بالذات ، فاذا اعتبرنا هذا المفهوم بكامل الجدية ، فلا يمكننا أن نخرج منه الا الى احدى الوجهتين التاليتين :

« ١ ـ يمكننا أن نعتبر أن تأثير المستقبل ليست له أى فعالية، وحينذاك يصح لنا أن ننادى بالرجوع الى الذات ، ونحن نتصورها كواقع ثابت يمكن ضبطه مباشرة ودون مبدأ سابق ، وتلك هى الدعوة للاصالة •

« ٢ ـ يمكننا أن نعتبر أن المستقبل مرغم (بالكسر) وأن الوضعية التى يخلقها لايمكن نقضها ، وعندئذ تصبح المشكلة ليست هى قبول أو رفض هذا المستقبل المرسوم ، ولكن الاختيار من بين الممكنات المعروضة لتلك التى تصدر عن منطق يتضمنه التاريخ •

« وكل وجهة تضفى معنى جديدا على الطرفين المتقابلين فى هذه المسرحية : الامبريالية والانا •

« ففي الحالة الاولى يقال : ان الامبريالية تغصبني روحي نفسها • ولا يمكنني أن أفكر الا بالقياس اليها ، في الوقت الذي أعتقد أني تخلصت منها ، اذ أكتشف أنها تحوطني من كل جهة • ومع ذلك ، فأنا ارفضه ، وهذا الرفض القوي هو الذي يكون ، بالفعل ، ذاتيتي الجديدة • ويصبح البحث عن الاصالة هو تلك الحركة ذاتها التي بواسطتها أنبذ ظهريا ما أخذته عن الغير • واذا لم يبق شيء في الاخير ؟ هذا لا أهمية له • فهذا التطهير العام هو الذي يشهد بأصالتي • وهكذا تكون هاته الوجهة ذات صبغة مظهرية •

«وفي الحالة الثانية، تصبح الامبريالية بنية مجتمعية شمولية اذا أخذ بها بلد ما ، فانها تصور للبلدان الاخرى اطار تطورها في المستقبل • ولا يسع البلدان الاخرى أن تفكر وتعمل الا في ذلك الاطار • الا أننا ، بدل أن ننظر الى هذا الوضع على أنه لعنة ، نميل الى اعتباره كانتصار للعالمية • فاذا كانت هذه البنية الجديدة قد فرضت نفسها بصورة لاتقبل الجدال ، فمعنى ذلك أنها تحمل قدرا أوفر من العالمية أى من الطاقة للتأليف بين الناس ، وذلك بالنسبة للبنية التي سبقتها • واذن ، فان هذه الوجهة الثانية مضطرة لايجاد مبرر تاريخي للامبريالية ، لا في جزئيات تصرفاتها ، ولكن في حركتها العامة • وهي ، فيما يخص الانا ترفض أن ترجع به الى مسلم سلبي ، وأن تعالجه كأثر بقي من روح جردت من ذاتها» •

ويواصل العروى نقده للاتجاه الاول المرتكز على الاصالة فيقول :

« ان الدعوة للاصالة ترن في الوقت الذى بدأ فيه المجتمع العربي يدخل في طور التصنيع • وهي لاتغير شيئا من الواقع الفعلي ، وانما تستهين نظريا بما تقبله عمليا • وأما الاتجاه الثاني ، فانه بالعكس يسجل التحولات المكتسبة ويريد فقط أن يضع الفكرة في مستوى الواقع • انه يبرر الدعوة الى الاصالة ، ولكن يصورها كاثبات تجريدى ، ويتجاوزها» •

مناقشة نظرية العروى :

هذه نظرية العروى التى عربناها حرفيا من كتابه «الايديولوجية العربية» والتى ينتهى منها الى ابراز التناقض بين الاصالة والتصنيع، دون أن يبين الاساس الفكرى أو التاريخى أو الاجتماعى الذى ينبنى عليه هذا التناقض • ولعله من الصعب عليه أن يبينه لانه غير موجود، فى الحقيقة ، كما يظهر ذلك من دراسة المجتمعات المعاصرة فى أوروبا وغير أروبا • فهل يفهم من هذا أنه يكتفى بتأكيد هذا التناقض ، اعتمادا على حدس باطنى يغنيه عن تقديم أى حجة ؟

مهما يكن ، فان هذه النظرية قابلة للطعن من عدة جهات :

١ ـ هنالك فهم خاطىء للأصالة فى حد ذاتها • فهو يجعل منها مجرد عودة الى الماضى وانطواء على الذات ورفض لكل اتصال واغتناء • بحيث انها تظل ، فى الاخير ، موقفا سلبيا للدفاع عن الذات • ودون أن نفكر طويلا ، ندرك ، لاول وهلة ، أن مثل هذا الموقف لا وجود له بتاتا فى التاريخ • فالذات ، وهى تعتد بنفسها وتدافع عن كيانها ، لاتريد أن تتخلى عمدا عن ما يقويها ويزيد فى بسطتها • وهذا ما نشاهده فى تاريخنا حتى فيما نسميه عهد الانحطاط والعزلة ، ثم ان هذه الذات ، ولو أصرت على العزلة والانطواء ، فان العالم الخارجى المحيط بها يضغط عليها بثقله ولا يترك لها الخيار • فالأنا التاريخى لايتصرف ككائن ميت محنط وجامد ، بل هو كائن حى يتصارع مع غيره من الكائنات وينتصر وينهزم وتبقى له ، دائما ، وحدة تاريخية تشده الى نفسه ، باستمرار ، وتجعله يشعر بهويته وسط الهويات • ولذلك ، فان العودة الى الأنا التى يفترضها مفهوم الاصالة ليس معناها العودة الى مخلفات مودعة فى المتاحف ، بل الى كائن تاريخى صنع تاريخ الماضى ويتحفز لصنع تاريخ المستقبل أى الى كائن حى دينامى قابل للتجدد والتلون ، قادر على أن يتجاوز نفسه •

٢ ـ يخطىء العروى، كذلك، فى تأويل الاتصال مع الامبريالية التى يجعل منها ، عمليا ، اتصالا بالعالمية ، وهو يعنى بذلك بعض المكاسب المادية والفكرية التى حصلت عليها المستعمرات ، بفضل الاتصال مع المستعمر • وفى مثل هذا التفكير كثير من المغالطة • ونتساءل : هل ما كسبته الشعوب المستضعفة ، فى هذا الصدد ، حصلت عليه رغم أنف الامبريالية ، وبدون رغبة منها ، أم سعت هذه الاخيرة الى ذلك وعملت على تطوير الشعوب وتحضيرها ؟ لقد كان الاستعماريون فى المغرب ، مثلا ، يقولون انهم جاءوا لنشر المدنية والعلم الخ ••• وبالطبع لم يكن أحد من المغاربة يصدقهم لانهم عملوا جهد المستطاع على الحيلولة بين المغاربة والمدنية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يوقفوا التيار ويسدوا كل الابواب والطرق • وبهذه الوسيلة المنتزعة من الاستعمار انتزاعا تمكن المغاربة من الاتصال مع المدنية العصرية • والمهم فى كل هذا ، اليوم ، هو أن نميز بين شيئين يختلفان كل الاختلاف فى المعنى والجوهر وأعنى الامبريالية التى هى حركة منظمة لاستعباد الشعوب واستغلالها ، من جهة ، والمدنية العصرية ، التى هى مجهود حر ومشكور بذلته عدد من الشعوب المتقدمة فى سبيل تحرر الانسان ورفاهيته ، من جهة أخرى • ولست أدرى كيف يمكن أن تأتى الثانية عن طريق الاولى ! أو ليس من الممكن أن نحصل على كل مكاسب الحضارة المعاصرة دون أن نقبل الخضوع للامبريالية ؟! واذن ، فكأنى بالعروى يصدق بأن للامبريالية مدرسة لابد لنا من المرور منها والاخذ عنها ! نعم ، اننا متفقون على الكلمة ، ولكن لانعطيها نفس المضمون • ان مدرسة الامبريالية ، فى نظرى ، هى مدرسة الوعى والدم والدموع والسجون التى علمت الشعوب قيمة الأنا التاريخى وتخليصه من طرق الميوعة والانقياد الرخيص •

٣ ـ بعد هذا نصل الى مشكل التصنيع : هل لابد لنا من أن نأخذ التصنيع ، هو أيضا ، عن مدرسة الامبريالية ؟ ان الدول

الاستعمارية كانت ، بالعكس ، تعارض في تصنيع الاقطار الخاضعة لها بوسائل السلطة والقوة • ونحن نذكر هنا مثالين اثنين : السياسة الفرنسية فى شمال افريقيا الرامية الى المحافظة على الطابع الفلاحي لاقتصاد الاقطار المغربية ، بحيث ان القطاع الصناعي ظل محدودا فى كل من تونس والجزائر والمغرب ، برغم المشاريع التى برزت في اللحظات الاخيرة من عهد الاستعمار • واليوم فقط ، فى عهد الاستقلال ، أخذت الجزائر تعمل بجد على توسيع قطاعها الصناعى •

والمثال الثاني تقدمه لنا مصر التى دخلت فى عهد التصنيع منذ بداية القرن التاسع عشر على يد محمد على • ثم جاءت انجلترا فى أواخر ذلك القرن فقوضت دعائم ذلك التصنيع المصرى وحولت البلاد الى مزرعة للقطن لفائدة معاملها فى مانشيستر وغيرها • وبقيت مصر بلادا زراعية حتى قيام الثورة فى ١٩٥٢ ، وآنذاك فقط استطاعت مصر أن تدخل فى عهد التصنيع بجد وحزم •

بحيث يتبين لنا من هذين المثالين أن الدخول في عهد التصنيع هو تعبير عن الذات ، عن الأنا ازاء الامبريالية التى كانت تعتبر ذلك من الرغبات التي يجب أن تكبت • واذن ، فان فكرة التصنيع اذا نظرنا اليها من وجهة بسيكولوجية ومعنوية ترتبط بالاصالة القومية أكثر مما ترتبط بشىء آخر • انها صورة من صور التحدى للامبريالية • فقد كانت الدول الاستعمارية فى أيامها الذهبية تصول وتجول على الدول المغلوبة لها بصناعتها وتكنولوجيتها ، متخذة من ذلك سلاحا معنويا تبرهن به على تفوقها المزعوم وتعزز به سيطرتها • لذلك ، فما أن تراجعت موجة الاستعمار وتحررت معظم الشعوب العالمية حتى كانت ترى فى التصنيع ، بالاضافة الى ضرورته الاقتصادية ، وسيلة لتأكيد شخصيتها وتحريرها نفسيا من ذلك التحدى الامبريالى •

فكيف لاينسجم ، والحالة هذه ، مع مظاهر الاصالة القومية الاخرى ؟ أو لعل العروى ينظر هنا الى التحولات الجذرية التي تمس الهيكل المجتمعي بالانتقال من الطور الفلاحي الى الثورة الصناعية ؟

حتى في هذا المنظور لانرى وجها للتناقض بين التصنيع والاصالة • حقا ان الهيكل المجتمعي تدخل عليه تغييرات عميقة مع التحول الى التصنيع ، ولكن هذه التغييرات تخلق اطارات جديدة لبروز الاصالة • وهذا ما نشاهده في دول أروبا الغربية ، مثلا • هنالك انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وايطاليا وكلها دول مصنعة • ولكن كل شعب من شعوبها يحرص على الحفاظ بأصالته • فلا زال الانجليزى يعرف بسخريته والفرنسي بنكتته والايطالي بولوعه الفني والالماني بخياله الفلسفي • وما أكثر الكتب التي ألفت عن خصائص الشعوب الاروبية وتنوعها في الخلق والروح والفكر والشعور ! ويكفي أن أحيل القارىء الى الكتاب الذى ألفه أحد الفلاسفة الالمان المذكورين في هذا العصر : «هيرمان فون كايزلينغ» بعنوان : «تحليل طيفي لاروبا» • اذ سيرى صورة ملموسة عن الفوارق الكبيرة التي تميز الشعوب الاروبية عن بعضها ، بالرغم من دخولها كلها في خضم الحضارة الصناعية •

بل ان المجتمع الصناعي بما يخلفه من ضغوط على الحياة الفردية يقوى الحنين الى الاصالة • فما شوهد الغرام بالطبيعة والفن الشعبي والفولكلور والمخلفات الاثرية كما هو واقع الان في المجتمعات الصناعية ، مما يجعل هنالك نوعا من الارتباط الجدلي بين التصنيع والاصالة ، وان كان كل من هذين العنصرين لايتنزلان في نفس المستوى داخل حياة المجتمع ، كما سنرى فيما بعد ، والذى يجب أن نذكره الان هو أن المقابلة التي أراد العروى أن يقيمها بين التصنيع والاصالة هي ، في نظرى ، من المشاكل المفتعلة التي لا أساس لها في الواقع ولا توضع بأى صورة من الصور على أى مجتمع •

ولست أعتقد أن الحكم فى مثل هذه الاشياء يرجع للرأى الشخصى أو للتخمين المجرد • بل ان لدينا الآن وسائل علميتو طرقا منهاجية تساعدنا على تكوين فكرة أكثر موضوعية وأقوى ارتباطا بالوقائع المجتمعية ، على اختلاف مستوياتها •

التصنيع والقيم الاجتماعية والانسانية :

ذلك أن موضوعا كالاصالة لايمكن فصله عن حياة المجتمع كظاهرة شمولية متكاملة • فالمجتمع ليس مثل الآلة الميكانيكية التى تتركب من قطع يمكن فصلها ، تارة ، ووصلها أخرى • وانما هو كالجسم الحى التى تتنوع خلاياه وتتعدد أنسجته ويتحرك بين عوامل مادية وأخرى نفسية ، اذ هنالك فى كل مجتمع وعى جماعى وشعور جماعى وارادة جماعية الى جانب ظروف العيش والمحيط الطبيعى والنظام الاقتصادى الخ ••• ومن التفاعل بين هذه العوامل المختلفة تتكون حياة المجتمع أو ، بالاحرى ، تاريخه • وقد بين العالم السوسيولوجى المشهور «جورج كيرفيتش» كيف أن هذه الحياة لاتجرى فى مستوى واحد ، بل فى مستويات تتفاوت عمقا وتأثيرا • فالحياة الاقتصادية تنزل فى مستواها ، والتصنيع له مستواه داخلها • والحياة الثقافية لها مستواها • ومن التفاعل بين هذه المستويات المختلفة ينتج ما نسميه المجتمع أو الحياة الاجتماعية • وحياة المجتمع لايمكن أن تفسر بظاهرة التصنيع أو الفلاحة وحدهما ولكن بتفاعل هذه العوامل كلها وبالدور الذى يلعبه كل واحد منها • والخطأ الذى يرتكبه عدد من الذين يقرأون «ماركس» هو أنهم يعتبرون أن هذا المفكر مادى مجرد ، متعصب للمادية مع أن نظريته ، كما هو معلوم ، تدعى المادية الديالكتية أو الجدلية • وهذا يعطى للمادة معنى خاصا يرتفع بها عن المفهوم السوقى والمبتذل ويجعل من الانسان فاعلا متحركا لا خاضعا منقادا ويقابل بين فكر الانسان والطبيعة التى تتمثل فيها المادة الخام • ولذلك ، فان ماركس

تحدث عن الانسان الكلى الذى لاينحصر فى الظاهرة الاقتصادية أو السياسية .

وتجاهلنا لهذه المستويات المتعددة التى يرسو عليها المجتمع ككل وللطبيعة الجدلية التى تنبنى عليها حياته ومشاكله ، يجعلنا ، بالطبع ، ننظر الى التصنيع بنوع من السذاجة ، سذاجة البدوى الذى دخل لاول مرة من القفار الى المدينة فبهرته أضواءها وشوارعها وبناياتها وأناقتها . ويدفعنا هذا الانبهار الى رد فعل بدائى وهو أن نكفر بذاتنا دفعة واحدة ونعتبر أنفسنا لاشىء وان القيمة المطلقة كلها تجمعت فى التصنيع .

هذه نظرة متهافتة الى التصنيع يجب أن تحل محلها نظرة أعمق وأكثر ادراكا لكل معطيات المجتمع عندما نتناول هذا الموضوع بالدرس . والمناقشة لاتمس ضرورة التصنيع فى بلادنا ، فكلنا مؤمنون بها راغبون فيها . ولكن الذى يعنينا هو أن نعرف بأى روح يجب أن يكون هذا التصنيع ، وكيف يجب أن ننظر الى أنفسنا ونحن نقدم على مثل هذه العملية .

التصنيع وليد ارادتنا ونحن الذى ننجزه ونتتبع أطواره من المادة الخام الى الاستهلاك . ونحن الذين نوجهه حسب الضرورات والحاجات . فحضورنا معه قائم مستمر فى كل الاوقات . فكيف يتسنى لنا نحن الذين أوجدناه لاهداف مرسومة أن ننسى ذاتنا وأن نسد آفاق حياتنا الواسعة ؟ وكيف يمكننا أن ننسى أن لهذه الذات تطلعات ومطامح وأن الهدف من التصنيع ، فى النهاية ، هو سعادة المجتمع أى الانسان وأن هذا الاخير ، بعد ارضاء حاجته الطبيعية والبيولوجية من الحياة ، يبقى فكره متوثبا متطلعا متفتحا ؟ وهنا يتراءى لنا ، منطقيا وفلسفيا ، المستوى الذى تنزل فيه الاصالة .

فالإنسان بعد أن يمر من ضجيج المعامل وأزيز الآلات وطنين الرافعات والشاحنات ، لايتمالك ، فى كل لحظة ، أن يتساءل عن

جوهر نفسه ومصيره بين ركام المواد وسلاسل الادوات والآلات ٠ انه «صانع الصناعة» كما يقول محمود أمين العالم ، ويشعر بأنه يظل فوقها وأنه قادر على أن يوجد شيئا آخر أرقى منها ٠ فآفاق المعرفة والابتكار تظهر له غير محدودة ٠ ولئن كان يدرك بأن الصناعة مظهر من مظاهر سيطرته على الطبيعة ، فهو يدرك ، فى نفس الوقت أنها لا تملأ الفراغ الذى يكتنف وجوده، ولا تمنع فكره أن يحتج ويعترض٠ فكيف يمكن لصانع الصناعة أن يعتبر أنه وصل الى نهاية النهايات وأوجد الحل لكل المشاكل ، والمجتمع الصناعى ، اليوم ، حافل بالمعضلات ، يتساءل باستمرار عن المصير والغد ؟!

نعم ، التصنيع على أوسع نطاق ضرورة لا محيد عنها لنمونا الاقتصادي وتطورنا العام ، ولكن حذار من البلاهة والغفلة ! ان الغاية القصوى من التصنيع هى تقوية الانتاج وتنمية الثروة وتمكين العدد الاكبر من أفراد المجتمع من الحصول على عمل مهنى ، هذا بغض النظر عن النظام الذى يتحقق فى نطاقه ذلك التصنيع ٠ وعلى أى ، مهما كانت النتائج ، فنحن لانخرج ، فى أحسن الظروف ، عن خلق مجتمع قائم على الاستهلاك ٠ وهنا ، طبعا ، نجد أنفسنا أمام المشكل الفلسفى : هل وجود الانسان يتحقق عن طريق الاستهلاك ؟ موضوع يحتاج الى تحليلات ومناقشات طويلة ليس من الضرورى غشيانها ٠ وكل ما أستطيع أن أقول هو أن أكثر الناس استهلاكا يكونون ، فى الغالب ، أقلهم ارتياحا وأكثرهم سآمة وضجرا ٠

مظاهر «العالمية» ومستوياتها :

ولنصل ، الان الى فكرة العالمية ومقابلتها بالاصالة ٠ حقا ، ان العصر الذى نعيش فيه تطغى فيه فكرة العالمية على الشعوب المستضعفة ، لانها تعيش تحت عامل مركب النقص ٠ فهى فى موقف الرجل الشاذ الذى يريد أن يكون كغيره من الناس ويعتبر شذوذه لعنة ويرى فى شبهه بزيد وعمرو نوعا من الدخول الى طور العالمية ٠

ولكن ، ماذا يمثل زيد وعمرو ؟ انهما يمثلان ذلك الرجل العادى المتوسط الذى لايتميز بأى شىء ويحب أن يبقى فى غمار الناس لاتشير اليه الاصابع ولا تلتفت اليه الانظار • فهذا الرجل يمثل أكبر مظهر للعالمية اذا نظرنا اليها من حيث الكمية العددية • وبهذا المنظور تقترن فكرة العالمية بفكرة التخفيض والتوطئة اذ هى تعنى الاتجاه نحو النموذج المتوسط للبشر الذى تنصرف أغلب ملكاته العقلية لشؤون الحياة اليومية ، ولا يخرج عن محيطها الا نادرا •

ولكن هناك مستوى آخر من العالمية ، وهو الذى لايتمثل فى الكم ، ولكن فى الكيف أى فى القيمة والمثل الاعلى • والعالمية لاتعنى آنئذ الاتجاه نحو التشابه والتحاكى بقدر ما تعنى الاجتهاد فى ابتكار صيغة شخصية للمثل والقيم • اننا كبشر متحدون جميعا فى السعى نحو تحقيق عدد من الاهداف ، ولكننا نفترق كمجتمعات فى طريقة تعبيرنا عنها ومحاولة تجسيمها وصياغتها • فكل واحد من هاته المجتمعات له منطلقاته ووسائله والهاماته الخاصة به • وفى هذا الاختلاف يكمن جوهر العالمية الحقيقى ، لان أى اتفاق ظاهرى بين البشر لن يعبر الا عن نظرة تعميمية وتجريدية • أى بعيدة عن الحياة فى حين أن الاختلاف يقذف بنا فى خضمها ، فنلمس الاشياء بأصابعنا ونتصور ما وراءها من أعماق وأسرار • وما الياذة هوميروس الا مجموعة من القصص الملحمية التى تغرق بنا فى حياة اليونان قبل الميلاد بعشرة قرون • انها صورة لمجتمع خاص ، فى بقعة صغيرة من الارض وفى عصر محدد • فهى ، لاول وهلة ، بعيدة عن أن تكون عالمية لانها مبنية كلها على خصوصيات • ومع ذلك ، فهل يوجد شىء عالمى مثل الالياذة ؟ نقرأها فى المغرب أو فى الصين أو فى المكسيك ، فنجد أنفسنا فى تجاوب كبير مع الشاعر الذى نظمها ونندمج معه فى جوه بكل يسر • نتساءل عن كل ذلك ، فندرك أن العالمية لاتكمن مطلقا فى نوع من التشابه أو التهافت على نموذج وضع مسبقا ، وانما فى هذه القابلية لبعث الحياة فى الغير عن طريق الحياة الكامنة فى الفن • وهذه الحياة الكامنة صورة أخرى من صور الاصالة •

فالخطأ الذى نقع فيه أحيانا هو الخلط بين العالمية والحضارة الغربية ، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الموضوع . والذى أريد أن أؤكده الان هو أن هذا الخلط لايرتكز على أى أساس علمى ، بل هو من قبيل التهافت . والعلماء الغربيون أنفسهم شاعرون بذلك ويرددونه فى دراساتهم . فالغرب القوى المستعمر يريد أن يفرض علينا وجهة نظره كمسلم علمى . ووجهة نظره هى أنه هو الوحيد الذى أتى بحضارة عالمية ، قابلة للتقدم والتطور ، متفوقة على كل الثقافات والحضارات . فهل هذا صحيح من الوجهة العلمية ؟

رأى الانثروبولوجيا فى العالمية ودور الاصالة :

الجواب على هذا السؤال يوجد فى الدراسة القيمة التى قام بها العالم الانتروبولوجى الكبير «كلود ليفى ستروس» بعنوان : «السلالة والتاريخ» .

هنالك نزعة عامة عند البشر ، توجد فى سائر المجتمعات منذ القديم وهى أن كل جماعة تؤمن بأنها هى مركز العالم ونخبة البشر ، فتنعت نفسها باسم وتنعت الغير باسم آخر . فاليونان أو الرومان يفرقون بين أنفسهم وبين غيرهم من الشعوب شاملين اياها تحت اسم البربر . وكذلك العرب يميزون بين أنفسهم وبين العجم . ويترتب عن هذا الموقف أن البشر لايقبلون ظاهرة تنوع الثقافات الى درجة أنهمينظرون الى الثقافات الاخرى من غير ثقافتهم كظاهرة من ظواهر التوحش .

هذا الموقف الاستعلائى والعنصرى هو الذى نجده اليوم فى الحضارة الغربية ، ولدى أبنائها بكل تدقيق . ونحن البعداء عنها جغرافيا لانرى الا مظاهر نجاحها المتمثلة فى التقدم التقنى والعلمى والاقتصادى . ولكن هل يصح لنا أن نجهل نقط الضعف الكبرى المتوارية وراء هاته المظاهر البراقة والتى رافقت الحضارة الغربية منذ نشأتها ؟ وهذا ما جعلها تتعرض لازمات وثورات متكررة تدل

كلها على أن الانسان الاروبى غير مرتاح وغير مستقر • فالحضارة الاروبية هى التى خلقت الاقطاعية فى صورتها المشوهة ، ثم الرأسمالية ثم القومية المتعصبة والامبريالية ، وكل هذه كانت عوامل لحروب ومجازر لم يسبق لها مثيل فى التاريخ • والحضارة الاروبية هى التى وضعت البشر بصورة جماعية فى قوالب الاستلاب كما يتمثل ذلك فى وضع البروليتارية ، والاتجاه الى هيمنة الدولة كليا على حياة الفرد وحرياته وحقوقه • وهل يصح لنا ، بعد ذلك ، أن ننسى الانتقادات الاساسية التى وجهها لهذه الحضارة مفكرون كبار من أمثال ماركس ونيتشه وشبنجلر وغيرهم ؟ ويكفى أن نراقب مدة وجيزة تطور الاحداث اليومية بأروبا لنرى مظاهر القلق تنبعث من كل مكان ، دالة على أن هنالك مشاكل وأزمات وتشكيات •

ولا أريد مطلقا أن أستنتج من هذا النقد أنه ينبغى لنا أن ندير ظهورنا لهذه الحضارة وأن نتجاهلها • بالعكس ، ينبغى أن نركز فيها أنظارنا باستمرار لنستفيد من تجربتها ولنأخذ عنها الكثير • ولكن الشيء الذى أؤكده مرة أخرى هو أنه من الحكمة ومن المنطق ، فى آن واحد ، أن ننظر اليها كشيء نسبى قابل للنقد والطعن وأن نخرج من طور الانبهار البدائى والاندفاع التلقائى وأن لانرهن حرية أفكارنا وعقولنا أمام الظواهر والاحداث مهما عظمت •

ان ما نسميه ، اليوم ، الحضارة الغربية هو وليد الحضارات السابقة ، وكما يقول «ليفى ستروس» فى دراسته : «ان أروبا فى بداية النهضة كانت مركز التقاء واندماج بين مؤثرات مختلفة تشمل تقاليد اليونان والجرمانيين والانجلوساكسونيين ، وكذلك المؤثرات العربية والصينية» فهى لم تخرج من لاشيء ولم تتطور وحدها بمعزل عن التاريخ وعن العالم • انها نتيجة لتعاون مجتمعات وثقافات • ثم انها لاتحتل من تاريخ الانسانية كلها الا أربعة قرون ، من القرن السادس عشر الى بداية القرن العشرين • وفى هذا القرن الاخير

أميريكا ، وشعوبا أخرى تتحفز الوثوب من جديد مثل شعوب الصين والهند والعرب • فماذا تعنى أربعة قرون فى تاريخ يتجاوز عشـرة آلاف سنة ؟ انها تعنى ، من دون شك ، مرحلة من المراحل ، ولكنها لاتعنى كل شيء • وقيمتها النسبية هى التى تجعلنا نعتقد على أنه فى الامكان ، بل من المحقق أن يخرج الى الوجود شيء أرقى وأعظـم منها • فلم ، يا ترى ، نرهن أنفسنا مع مرحلة انتهت أو كادت تنتهى من تاريخ البشرية ؟ ولم لانستعمل حريتنـا بصورة أقـوى ذكـاء وتبصـرا !

ان الثورة الصناعية عامل من عوامل توحيد الحياة البشريـة فى مستوى الانتاج والاستهلاك • ولكن ، هل هى قادرة على محـو الذاتيات الجماعية التى تتميز بها الشعوب بعضها عن البعض ؟ وهل هى قادرة على توحيد أسلوب الحياة ، على نطاق الانسانية كلها ؟ وهل من الخير ومن المفيد للبشر أن نصل الى هذا التوحيد الكلى حتـى يصبح الناس فى كل مكان مثل أعواد الكبريت لايتميز أحدهم عـن الآخر بأى شيء ؟

الواقع أن هنالك عاملين متناقضيـن يتجاذبـان المجتمعـات البشرية ، منذ قديم التاريخ : عامل يدفع بها الى التقارب والتوحـد وآخر يجرها ، بالعكس ، الى المحافظة على خصوصياتها • والغريب أن المجتمعات المتجاورة فى الموقع الجغرافى قد تكون هى المتنافـرة من حيث التقارب الحضارى ، ويكفى أن نقارن ، مثلا ، بين الشعبين الفرنسي والانجليزى اللذين يختلفان فى أشياء تهم الحياة اليومية ، فى الموازين والمكاييل والطبخ والسياقة والحياة البيتية والتربيـة الخ •• حتى ان ليفى ستروس يخرج من أبحاثـه الانتروبولوجيـة بهاته الملاحظة العامة :

«يمكن لثقافتين أنشأهما رجال ينتمون الى سلالة واحدة أن تختلفا عن بعضهما بنفس المقدار أو أكثر من ثقافتين صادرتين عن جماعات متباعدة من حيث السلالة» •

واذن ، هنالك مفاهيم كثيرة يجب أن تراجع أو أن تلغى ، بالمرة ، وهي التي يعيش عليها الكثير منا في تفكيرهم أو كتابتهم • فهنالك مفهوم «الحضارة الغربية» الذي يجب أن ننظر اليه من زاوية النسبية وأن نفحصه بأشعة س ، ان صح التعبير ، حتى نشاهد ما في أحشائه من أورام والتهابات • وهنالك مفهوم «التصنيع» الذي يجب أن نزيل عنه كل هالة ميتافيزقية ونخرجه من ضوضاء الاحاديث الصالونية لنرجعه الى نصابه الحقيقي وندرس مدى تأثيره على حياة المجتمع والمجال المحدود الذي يدور فيه هذا التأثير • وهنالك مفهوم «الحضارة العالمية» الذي يجب أن يراجع من الاساس لانه يؤدي الى أغلاط فادحة فاحشة •

فمن هذا المفهوم الاخير بالذات يتخذ البعض أرضية يظنونها صحيحة ثابتة لينطلقوا في التقييم والتصنيف والنقد • ولكن ، ماذا تعني الحضارة العالمية ، في النهاية ؟ انها ، من جهة الواقع والموضوعية تشمل كل المعطيات الحضارية التي يتميز بها هذا النصف الثاني من القرن العشرين • فهنالك حضارة العالم الغربي الرأسمالي بكل أنواعها • وهنالك حضارة العالم الاشتراكي بمختلف صياغاتها • وهنالك حضارات ما يسمى بالعالم الثالث • فاذا اعتبرنا كل هذه المعطيات القائمة في عصرنا نجد أن مفهوم الحضارة يعني آنذاك خليطا بل سديما لا أول له ولا آخر •

ولكن ، تقول لي المقصود بهذا المفهوم ليس هو النظر الى كل المعطيات ، وانما تركيز النظر في مظاهر التقدم التي يبرزها عالمنا الحاضر • وهنا نجد أنفسنا مضطرين الى تصنيف من نوع آخر • فهنالك عالم الادوات التي يستعملها الانسان في حياته من سكنى ومركوب وأثاث وطبخ الخ •• وفي هذا المجال نجد نوعا من التعميم

والعالمية • وهنالك عالم الفكر والخيال الفني والقيم والتعبير بمختلف صوره ، وفيه نجد امعانا في الاختلاف والتنوع ، رغم التقارب ، بحيث ان العالمية تكتسي هنا معنى آخر وهو الذي يلخصه ليفي ستروس في عبارة : «تعاون الثقافات» •

ويبين هذا المفكر في دراسته كيف أن الحضارة لايمكنها أن تنتعش وتتقدم الا في نطاق هذا التعاون الدائب المستمر • فالثقافة المنعزلة المنفردة لايمكنها مطلقا أن تصعد في سلم الرقي • والواقع أنه «لاتوجد أي ثقافة منعزلة ، بل انها تظهر دائما متصلة مع ثقافات أخرى ، الشيء الذي يمكنها من بناء سلاسل انمائية» •

واذن ، ليس هنالك انعزال كما أنه ليس هنالك اندماج • فكل ثقافة لها كيانها الحي الملموس ومشخصاتها في الوقت الذي تتصل فيه بثقافات أخرى • فالتعاون والاتصال هو الذي يكتسي ، في الحقيقة ، صبغة العالمية وليس المضمون الثقافي ذاته • وان معنى غير هذا يؤدي بنا الى تصور لثقافة عالمية ضحلة فارغة ، كما يفسر ذلك ليفي ستروس في هاته الفقرة التي أنقلها بكاملها :

«اذا كانت هنالك ثقافات مشخصة ، يمكن تحديدها في الزمان والمكان ، ويمكن أن نقول عنها انها «ساهمت» ولا زالت تساهم ، فما معنى هذه «الحضارة العالمية» المفروض في شأنها أنها استفادت من كل هاته المساهمات ؟ انها ليست بحضارة متميزة عن الاخرى ومستمتعة بنفس الدرجة من الواقع • فنحن عندما نتكلم عن الحضارة العالمية ، لانعني عصرا بذاته ولا جماعة من الناس بعينها • اننا نستعمل هنا مفهوما تجريديا نضفي عليه قيمة أخلاقية او منطقية • فهي أخلاقية ان كان الامر يعني غاية نقترحها على المجتمعات القائمة • وهي منطقية ان كنا نقصد بها أن نجمع في كلمة واحدة العناصر المشتركة بين مختلف الثقافات والتي يسمح التحليل بابرازها • وفي كلتا الحالتين ، لاينبغي أن يغيب عنا أن مفهوم الحضارة العالمية جد هزيل ومختزل وأن مضمونه الفكري والعاطفي لايحتوي على أي

كثافة • واذن ، فان كل محاولة تهدف الى تقييم المساهمات الثقافية المحملة بتاريخ يتجاوز آلاف السنين وبكل ثقل الافكار والآلام والرغبات والعمل للرجال الذين أخرجوها الى الوجود ، بوضعها تحت المقياس الوحيد لحضارة عالمية لاتزال قالبا فارغا ، معناه تفقيرها بصورة مغالية وافراغها من مادتها والاحتفاظ فى الاخير على جسم كشط من لحمه» •

ويذهب ليفى ستروس فى استنتاجاته الى ما هو أبعد من ذلك حيث يؤكد أن المساهمات الحقيقية للثقافات تكمن فى «التباين النوعى» بينها ، بحيث ان «الحضارة العالمية لايمكن أن تكون شيئا آخر غير ائتلاف بين الثقافات ، على النطاق العالمى ، مع احتفاظ كل واحدة منها بأصالتها» •

هذا رأى عالم أنتروبولوجى له خبرةفائقة بالمجتمعات والحضارات البشرية ويعتبر من ألمع المفكرين العالميين فى العهد الحاضر • فهو فى تحليله يضع المجهر ليشاهد التعقيدات العديدة الموجودة فى الحياة الاجتماعية ، على حقيقتها ، ويرى المكانة الرئيسية التى تحتلها الاصالة ، مهما كانت درجة المجتمع من الرقى سواء أكان يرجع للعهود الحجرية أم يعيش على النشاط الفلاحى أم يركز وجوده على الصناعة• ومعنى هذا أنه ليس هنالك أى تعارض أو تناقض بين التصنيع فى أوسع أبعاده وبين هذه الاصالة التى هى المصدر الرئيسى فى المجتمع للخلق والابتكار • وهذا ما تؤكده كل النظريات والفلسفات الثورية المعاصرة ، كما سنرى ذلك فى المقال المقبل •

سلا : محمد زنيبر

عبد الله راجـع

# الجزء الاخير من باب الرفض

## - ١ -

يخبرني النورس المقبل
عن الليل تصهل في جوفه الاحصنه
تموت الحساسين عطشى على شرفات زمان طويل
من القيظ يمتد جســرا
الى آخر الازمنــة
وذات شتاء ٠٠ كهذا الشتــاء
مددت عيوني من الثقب ٠٠ أبصرت حزنا
يطل من الشفــق
خيولا تدك حوافرها جبهة الافق فالافق بحر دماء
يشق النواء الازقة ـ طحلبها الصمت والتعب ـ
تمطيت (ها أقبلت سنة الجدب ، عبر انكسار المواقيت ٠٠
وانكشف البحر عن سفن القرصنة)

## - ٢ -

يخبرني النورس المقبــل
عن البحر يقذف للشط ريحا تمر على كل دار
تدق تدق وجوها علاها الغبــار
سألت المسافات عن عطش يستبيح جذوري ..
تحسست وجهي البطل ـ ترسب ملحا على هامتي الوجه
اذ عبرتني السمائم خلسه
تفيأت لوني على عربات انتظار البشاره
ولوحت للريح تعبر بي الحزن .. على أغير وجهي
اذا اختلجت في المدى الالويــه
فلم يذب الحزن ، لكن عيون الرجال
تقول : عبرناك يا زمن القحط ، جعنا ، عرينا مرارا
وها نحن نمتد لبلابة لاتطال

## - ٣ -

فتحت الشبابيك في زمن القيظ للريح والسابله
يجيئون ـ والحزن عرش ـ قافلة من عيون
تسيل اشتعــالا
على وهج الصمت ،ما اندحرت بعد راياتها القافله
تموج مدى التيه ، قلت التواريخ قد بدأت
فمددت الى الريح كفا وكفا الى العابرين الجسور
توضأت بالرفض عبر البراريك فاشتعل الرفض ، صار
على الخد شامــه
اذ اندحرت سفن الاهل يوما ففي الوجه منه علامه

- ٤ -

تداخلت فى زمن الفصل ، ها برز الحق وانكشف الفرق
بين انتظار البشارات والسفر
يلوح على هودج السالكين المفاوز ·· وشما
تعتق فى كتب السهـر
فمن يلجم الخيل ان بقرت للمدى غب هذى العشيات
فاختلط البحر باليابســه
على سنة الرفض وانقلبت آية الحزن حرفا
تلك الخيول ـ اذن ـ هامة الشرفات
فاطوى الصحارى الى وطن كان بالامس منفى
وكان على كل باب خفير
تداخلت فى زمن الفصل ·· عينى على المدن المستردة ألوانها
وقلبى مع العابرين الجسور ··

٧٢/٣/١٥

محمد سبيلا

# ضد مفهوم الاستلاب

تشاء قوانين الموضة ، التي غزت كل الميادين بما في ذلك ميدان الفكر ، أن يصبح لفظ الاستلاب لفظا متداولا ومستهلكا بكثرة . فليس غريبا اذن أن يحظى هذا اللفظ بكل أسبقية ويصبح زينة المقالات وحلية الاحاديث . ان ما يجيز استخدام مفهوم من المفاهيم هو مدى الحاجة اليه للتعبير عن واقع معين ، ويقدم مفهوم الاستلاب هذه الاستجابة السريعة . ولكن السؤال في هذه الحالة هو ما اذا كان اللفظ يستطيع أن يعبر بالضبط عن هذه الحالات التي هو مدعو الى التعبير عنها . ولعل الامر ليس كذلك بالنسبة لمصطلح مغر كهذا. وأغلب الظن أن مصدر صفته الاغرائية هو من ناحية غرابته وجدته على التقاليد الثقافية العربية ، ومن ناحية ثانية مطاطيته وغموضه وعدم تحدده ، فهو بقابليته الاحتواء عدد كبير جدا من الوحدات الدلالية (الغربة ، الانفصال ، السلب ، التحقق الموضوعي ، الضعف، الفوضى ، العبث ... الخ) مهيأ للتعبير عن مجالات متباينة ومتنوعة، فهو يكاد يعني كل شيء ولا شيء بالضبط . وهو من أوسع المصطلحات المعاصرة جلبابا وأكثرها تداولا : «واذا قمنا بوصف

وتحليل الادب السوسيولوجي والسيكولوجي الحالي (٠٠٠) سنكتشف أن عددا لابأس به من الكتب والمقالات يستخدم فيها لفظ الاستلاب ، وهي تتطرق الى كل شيء ابتداء من المشاركة الضعيفة في الانتخابات ، الى التمييز العنصري وعدد من الازمات الاجتماعية ، الى السلوك العصابي الفردي» (١) ٠

وقد أثار المقال المنشور في العدد السابق عدة مسائل يتعين مناقشتها بصدد موضوع الاستلاب ٠ فلنعرض أولا لجملة من الملاحظات على المقال لنعرض بعد ذلك نظرنا في الموضوع ٠

أ ـ يقول الكاتب بأن ماركس قد «تكلم عن الاستلاب في مقال مركز أو ضمن مؤلفاته الفلسفية والاقتصادية لدى تحليله للعمل ولقوة العمل و٠٠» (٢) ونحن نعلم أن ماركس لم يفرد للاستلاب مقالا مركزا أو غير مركز ٠ كما أن مؤلفاته الفلسفية والاقتصادية [illegible] لا [illegible] بالضبط ما هي المؤلفات ، خاصة اذا كان ما يفصلها عن [illegible] كلمة تدل على التردد وعدم الحسم هي أو ٠ [illegible] الحكم على الكلام السابق بأنه كلام عام وغير دقيق [illegible] لم يكن [illegible] ٠

[illegible] ـ حتى لانحاسب الكاتب بصدد مسألة لم [illegible] ماركس كان في يوم من الايام هيجيليا (٣) [illegible] للانسان كما هو الامر عند هيجل الذي [illegible] الوعي بالذات ٠ وهذا ما يقصده مقال [illegible] الماركسية ليست فلسفة ماهوية ٠ ان ماهية [illegible] هذا المصطلح الفلسفي المثالي بصدد [illegible]

١ ـ [illegible] الاستلاب من ماركس الى السوسيولوجيا المعاصرة ٠ دار أنثروبوس ٠ ص ٤٠٧ ٠

[illegible]

[illegible] (٠٠٠) باستثناء النص الاخير لمرحلته الايديولوجية الفلسفية ، إن ماركس الشاب لم يكن أبدا هيجليا ، بل كان [illegible] أولا ، ثم فويرباخيا بعد ذلك» ألتوسير : من أجل ماركس ص ٢٧ ٠

الماركسية ـ ماهية بعدية ، لاحقة للوجود الواقعي للانسان • ليست الماهية هي ما يحدد الوجود بل العكس • «ليس وعى الانسان هو الذى يحدد وجوده ، بل العكس ان وجوده الاجتماعي هو الذى يقرر وعيه» (١) • أن يدافع المرء عن الماهية بصدد ماركس معناه الوقوع فى مزالق المثالية ، ويصبح الامر أعقد اذا كان المقصود هو الدفاع عن الطابع الواقعي والمادى لفكره ، فى حين هو يقحمه فى خمأة المثالية وفلسفة المهايا • وسيزداد الامر سوءا اذا كان عجز الجملة من غير نوع شطرها (بلغة الشعراء) أو بالتعبير المنطقي اذا كانت النتيجة من غير صنف المقدمة فنصبح أمام خلط فى مستويات الحديث •

ج ـ يرى كاتب المقال السيد هناوى أن سر شعبية الماركسية هو أنها «ليست مجرد سفسطة فلسفية» «ولانها ربطت سيكولوجية الانسان بالحيز الذى يشغله اقتصاديا فى المجتمع» • والحق ان سر شعبية الماركسية ليس فى جماليتها ولا فى تناسقها المنطقي ولا فى اغرائها اللفظي وانما السر فى ذلك انها (١) ايديولوجيا لطبقة رئيسية فى كل المجتمعات المعاصرة (٢) كونها منهجا علميا لفهم المجتمعات والتاريخ ونظرية سياسية تتخذ أداة فى النضال السياسى • ان تقبل الماركسية من طرف أعرض الجماهير ليس مسألة صدفة أو اختيار تلقائى بل ترجع الى الحاجة التاريخية للطبقات المستغلة الى نظرية علمية ترشد نظرتها وممارستها ، وتعبر عن مصالحها التى تنطابق ومصالح كل المستغلين والمضطهدين •

د ـ ليس دقيقا أن يقال بأن الاشتراكية العلمية ليست ضد الملكية الفردية بشكل عام • فالاشتراكية العلمية تضع الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج (لا لوسائل الاستهلاك) كمقدمة وشرط أولى لتحرر الانسان •

---

١ ـ كارل ماركس : مقدمة كتاب مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى • دراسات اقتصادية • ترجمة د• فؤاد أيوب • مكتبة الاشتراكية العلمية ـ ٢ ـ • ص ٣٥ دار دمشق •

وقد نلتمس الاعذار والتبريرات للكاتب بسبب «الصعوبة القصوى» فى معرفة وجهة النظر الماركسية (فى الاستلاب) نظرا لـ «غياب النصوص الادبية الماركسية اللينينية من أيدى كثير من قراء العربية» • واني لاوافق الكاتب هنا تماما بسبب رداءة الترجمات المتوفرة ، ونقص دقتها في الترجمة ، بالاضافة الى أن بعض المتون الاساسية لم تعرف طريقها نحو العربية الى الان •

وبعد ذلك يبقى ان المقال دفاع عن الاستلاب الماركسي ضد الاستلاب الميتافيزيقى • والحال ان مفهوم الاستلاب تصوره وما صدقه ـ بتعبير المناطقة ـ ميتافيزيقى • فلنتساءل اذن عن كيفية استخدام ماركس لهذا المفهوم ، ومدى معقولية الدفاع عنه •

الاستلاب مفهوم أثرى فى تاريخ الفلسفة • ويعود تاريخه الى المثالية الالمانية ، بل هناك من يعود به الى فكرة أفلوطين عن تحولات الواحد (١) • فروسو يستخدمه لوصف انعكاس حالة **انفصال** الانسان عن الطبيعة **وحرمانه** من حريته الطبيعية **الاصلية** حينما انخرط فى العقد الاجتماعى (٢) • ثم تستخدمه المثالية الالمانية (كنط) للدلالة عن **عدم اكتمال وغربة** الانا الظاهرى بالنسبة للانا النومينى• أما هيجل فيستخدمه للدلالة على انفصال الفكر (أو الروح) عن ذاته فى عملية خلق الموضوعات • فالموضوعات هى تحقق موضوعى للفكر وانفصال عنه أو استلاب له (٣) •

## أ ـ نظرية الاستلاب وماركس الشاب :

يؤسس ماركس فى مرحلته الفلسفية (اللاحقة للفترة الليبرالية فترة الاطروحة وكتابات الجريدة الرينانية) نظرية فى الاستلاب

---

١ ـ دراكوتين لوكوفيتش : الاستلاب من ماركس الى السوسيولوجيا المعاصرة (مترجم)

٢ ـ جوهاشيم اسرائيل : الاستلاب من ماركس الى السوسيولوجيا المعاصرة (مترجم) منشورات انتروبوس • باريس ١٩٧٢ ـ ص ٤٥ •

٣ ـ نفس المرجع ص ٥٣ •

مؤداها أن الانسان يعانى فى كافة مظاهر حياته من ظاهرة كلية غير سليمة هى ظاهرة الاستلاب . تأخذ هذه الظاهرة مظاهر ثلاثة : استلاب دينى (١) يتمثل فى خضوع الانسان لعالم الوهم وانفصال ماهيته عنه ، واستلاب سياسى (٢) يتمثل فى انفصال عالم السلطة السياسية عن الانسان ، واستلاب اقتصادى (٣) يتمثل فى تبعية العمل لرأس المال ، وغربة العامل عن منتوج عمله وخضوعه للقوة الاجتماعية للمنتوج تلك القوة التى تتحول مباشرة من العامل الى المالك . والعلاقة بين هذه الظاهرة هى علاقة علية بمعنى أن الاستلاب الاقتصادى هو علة كافة مظاهر الاستلاب الاخرى ، أو انها مشتقة منه . العمل المستلب اذن هو علة استلاب الدولة واستلاب العالم الدينى . ويقدم ماركس ثلاثة عناصر يعتبرها أساسا للعمل المستلب هى : ١ ـ الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . ٢ ـ وتقسيم العمل الذى هو نتيجة لتطور «القوى المنتجة» . ٣ ـ ثم تحول العمل الانسانى الى سلعة تسرى عليها نفس القوانين التى تحكم السلع الاخرى . هذه العوامل الاجتماعية التى تولد عملية الاستلاب .

هذه العوامل الاجتماعية الثلاث (تحول الانسان وقوة عمله الى بضاعة وتقسيم العمل والملكية الخاصة) هى الثالوث العلى للحالات السيكولوجية للاستلاب .

أ ـ يشعر العامل بأنه مستلب بالنسبة لعمله أى لنشاطه الخاص . فهو يشعر بأن عمله ليس عملا اراديا بل هو عمل ارغامى «انه حكم بأشغال شاقة فهو ليس تلبية لحاجة ، بل هو وسيلة لتلبية حاجات خارجة عنه» . يصبح العامل اذن **غريبا** عن عمله ، ويشعر بأن عمله «**خارجى**» بالنسبة له ، وانه ليس اثباتا لذاته بل هو تنكر ونفى لها . يقول ماركس فى المخطوطات أن استلاب العمل يتجلى

---

١ ـ يعرضه ماركس فى : نقد فلسفة الحق عند هيجل (١٨٤٣) .
٢ ـ يعرض ماركس خطوطه العامة فى الكتاب السابق وفى «المسألة اليهودية» .
٣ ـ يعرضه ماركس فى مخطوطات سنة ١٨٤٤ الذى هو خلاصة لفكر ماركس الشاب .

فى «ان العمل خارجى بالنسبة للعامل اى لاينتمى الى كينونته ، وبالتالى فالعامل لايثبت ذاته فى عمله بل العكس يتنكر لذاته فى العمل ، (...) وهو لاينمى فى العمل أية طاقة حرة من طاقاته لا مادية ولا معنوية ، بل يقتل جسمه ويخرب روحه . وهذا هو السبب فى أن العامل لايشعر بأنه يملك زمام نفسه الا حين يغادر العمل (...) ان عمله هذا ليس اراديا بل هو عمل قسرى . انه حكم بأشغال شاقة . فهو ليس تلبية لحاجة بل هو وسيلة لتلبية حاجات خارجة عن العمل» (١) .

يتجلى الاثر السيكولوجى لاستلاب العامل بالنسبة لعمله فى غربة عمله عنه ، وخارجيته بالنسبة له ، وانكاره لذات العامل ، وتقتيله لروحه وقسريته مما يجعل هذا العمل لاتجليا لماهية الانسان المنتجة والاجتماعية بل تخريب وقتل لها . ليس العمل امتدادا للحياة أو نشاطا تلقائيا من نشاطاتها بل هو وسيلة للحياة ، اذ به وبعده فقط تبدأ الحياة .

ينتج عن ذلك مباشرة غربة الانسان عن نوعه . فاذا كانت ماهية الانسان أيضا فى نوعه فان العمل المستلب يفصل الانسان العامل عن نوعه أى عن ما يحدد انسانيته ويسلبه بالتالى انسانيته .

ب ـ بالاضافة الى شعور العامل باستلابه بالنسبة لعمله وبالتالى تجاه نوعيته الانسانية ، يشعر العامل أيضا بأنه مستلب تجاه منتوج عمله . فهو يشعر بأنه غريب عن منتوجه ، فحالما يكتمل هذا الاخير ينفصل عن العامل المنتج وينضاف كملكية خاصة الى المالك تعود لتسيطر عليه . «ان الموضوع الذى ينتجه يعود ليجابه العمل كما لو كان كائنا غريبا ، أو كما لو كان المنتوج قوة مستقلة عن المنتج» (٢) . ان العامل لايفقد المنتوج فقط ولا يجدد من ملكيته

---

١ ـ كارل ماركس : مخطوطات ١٨٤٤ . المطبوعات الاجتماعية . باريس ١٩٦٩ ص ٦٠ الطبعة العربية (ترجمة الياس مرقص) دمشق ١٩٧٠ (مع الاشارة الى رداءة الترجمة) .

٢ ـ نفس المرجع . الطبعة الفرنسية ص ٥٧ ـ الطبعة العربية ص ١٧١ .

فقط ، بل ان منتوجه يأخذ صورة قوة قاهرة فهو قد انضاف الى رأس المال وبذلك أصبح أداة استغلال لقوة العامل الذى أنتجه .

ويتضمن استلاب الانسان بالنسبة لمنتوج عمله استلابه تجاه الطبيعة اذ تأخذ الطبيعة فى هذه الحالة صورة عدو • فحين يختطف من الانسان منتوجه فان الطبيعة برمتها تكون قد انتزعت منه ولم تعد فى ملكه • ان الانسان باعادة انتاجه للطبيعة بفعل العمل الذى يمارسه عليها يحصل على البعد الشمولى للنوع • ولكن العامل فى المجتمع الرأسمالى بعيدا عن أن يحصل على شمولية كينونته فى الطبيعة ، وبعيدا عن أن ينطبق على النوع ويتحد به فانه يجد نفسه مزاحا بعنف عن الطبيعة ومعادا بقسوة الى خصوصية كونه كائنا بيولوجيا (١) •

وخلاصة نظرية ماركس الشاب بصدد الاستلاب هو أن هناك واقعا اجتماعيا مستلبا (أى فاعلا) ، أركانه الثلاث هى بضاعية العمل وتقسيم العمل والملكية الخاصة ، يولد حالات استلاب سيكولوجية تتمثل فى شعور العامل بانفصال فعل عمله عن ماهيته النوعية من حيث هو كائن منتج ـ الى أدوات استنزاف لمجهوده وسيطرة عليه وبالتالي الى سلب لماهيته •

### ب ـ نقد أسس نظرية الاستلاب عند ماركس الشاب

واضح أن هذه النظرية تقوم على أساس تصور انتربولوجى فلسفى للانسان من حيث هو كائن نوعى أى أن ماهيته هى فى نوعه وفى شموليته • فهو كائن كلى بمعنى أن الفرد يحقق فى ذاته كل صفات واستعدادات النوع • وهو كائن اجتماعى فى عمقه فهو لايمكن أن يحيا خارج العلاقات الاجتماعية «فالمجتمع اذن هو نتيجة الطابع

---

١ ـ انظر جان كلافل : فكر كارل ماركس ـ منشورات سوى ـ طبعة [illegible] ١٩٧ ـ ص ١٤١ ـ ١٤٢ •

الاجتماعي الاساسي للانسان» (١) • وهنا يتجلى التصور الفلسفي التجزيدي للانسان ، فالطابع الاجتماعي للانسان هو سر وجود المجتمع عندماركس الشاب و «الفرد هو الكائن الاجتماعي» (٢) بينما نجد الامر على عكس ذلك عند ماركس الناضج الذي يقدم نموذجا سوسيولوجيا للانسان وتحليلا علميا له • فالطابع الاجتماعي للانسان من تأثير المجتمع وليس العكس • وتعلن الموضوعة السادسة حول فويرباخ بشائر تحول نظري كبير في فكر ماركس : «ولكن ماهية الانسان ليست تجريدا مباطنا للفرد المنعزل • انها في واقعها مجموع العلاقات الاجتماعية» • ان الطابع الاجتماعي للانسان اذن هو انعكاس لواقعه وعلاقاته الاجتماعية ، وليس الواقع الاجتماعي هو انعكاس الماهية الاجتماعية للانسان •

هذا التحول النظري بصدد تصور الانسان ليس الا جزءا من تحول كبير تعلن عنها الاطروحات والايديولوجيا الالمانية في صورة حية • ويؤرخ ماركس لهذا التحول قائلا : « (•••) فقد قررنا أن نخرج معا معارضة رأينا للرأى الايديولوجي الخاص بالفلسفة الالمانية وفي الحقيقة أن نصفى حساباتنا مع وعينا الفلسفي السابق» (٣)•

والحق أن هذه الثورة النظرية (التي يعطيها التوسير مصطلحا سلبيا ووحيد الجانب وغير جدلي هو: الفصلة الابستمولوجية) (٤) تعطينا تصورا جديدا عن المجتمع وعن الانسان والتاريخ أو بعبارة أخرى فهي بداية تكون علم جديد هو المادية التاريخية • وما هذا التحول الا انتقال من وعي فلسفي الى وعي علمي من الكائن النوعي

---

١ ـ جوهاشيم اسرائيل : الاستلاب ••• ص ١٢١ •

٢ ـ كارل ماركس : مخطوطات ١٨٤٤ ، الاقتصاد السياسي والفلسفة ـ الطبعة الفرنسية ص ٩٠ ـ الطبعة العربية ص ٢١٧ •

٣ ـ كارل ماركس : دراسات اقتصادية ـ مقدمة كتاب مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ص ٥٤ •

٤ ـ انظر التوسير : من أجل ماركس ـ ص ٢٥ •

الى الكائن الاجتماعى ، ومن الاستلاب الى التشيؤ ، ومن التحقق الذاتي الفردى للانسان الى خلق الشروط الاجتماعية لتحرر الانسان، ومن شيوعية خلاصية ومهدوية الى الاشتراكية العلمية ٠

الاستلاب اذن مصطلح أثرى فى عملية تطور فكر ماركس ، وهو ينتمى الى مرحلة الوعى الفلسفى ، ثم هو مفهوم يقوم على أساس تصور فلسفى تجريدى للانسان وعلى أساس تصور رومانتيكى للعمل الانسانى (أى التمجيد الرومانتيكى لعمل الصناع السابق على الرأسمالية والتصنيع) ٠ ثم هو بالاضافة الى ذلك مصطلح قد تخلى عنه ماركس (وقد لايكون ذلك سهوا) وأخذ يستخدم مفاهيم اجتماعية واقصتادية أكثر تحددا هى : فيتيشية السلعة ، واستغلال قوة العمل ، وقانون الافقار وقانون التراكم ، وانتاج فائض القيمة ٠٠٠ وبكلمة واحدة فان الانتقال من الاستلاب الى التشيؤ هو انتقال من التصور الفلسفى التجريدى الى تصور سوسيولوجى علمى (مادى ـ تاريخى) ٠٠

## ج ـ نظرية التشيؤ وماركس الناضج :

ينحت لوكاتش لفظ التشيؤ Réification للتعبير عن نظرية ماركس الثانية حول الاستلاب (١) ٠ أساس نظرية التشيؤ هو ما يدعوه ماركس فيتيشية السلعة أو السمة السحرية للسلعة ، ذلك أن الموضوعات فى نظام الانتاج الرأسمالى تتحول مباشرة الى سلع أى الى موضوعات لاينظر اليها من حيث قدرتها على اشباع وتلبية الحاجات الانسانية بل من حيث قيمتها التجارية بالنسبة لموضوعات أو منتوجات أخرى ٠ وبعبارة أخرى فان نمط الانتاج الرأسمالى يكسب كافة الموضوعات قيمية تبادلية ويباعد بين قيمتها الاستعمالية (أى قيمتها المباشرة فى اشباع الحاجات) وقيمتها التبادلية (أى قيمتها بالنسبة لموضوعات أخرى مقاسة بقيمة تبادلية شاملة هى

---

١ ـ ج٠ اسرائيل : الاستلاب ص ٩٧ ٠

المال) • تكتسب كافة الموضوعات اذن بصورة حتمية قيمة تبادلية ما فى المجتمع الرأسمالى • والقوانين الموضوعية لنظام السوق الرأسمالى هى التى تحدد بصورة حتمية أيضا القيمة التبادلية لسلعة ما (٢) •

بابتعاد الانتاج الرأسمالى عن الاهداف المباشرة أى اشباع الحاجات ، وباتخاذه طابعا عاما وتجريديا يكسب حتما كافة الموضوعات قيمة تبادلية ويعطيها صفة **أشياء** ذات قيمة تبادلية معينة تحددها قوانين السوق أى قوانين العرض والطلب • وبتحول الموضوعات الى سلع أىَ الى مجرد أشياء تصبح مستقلة عن الاهداف التى أنتجت من أجلها بل تتحول ضد هذه الاهداف • وقل هذا أيضا عن كل المؤسسات الاجتماعية (٣) • ولا يقف الامر عند هذا الحد بل تتحول قوة العمل وكل العلاقات الانسانية الى قيم تبادل وتكتسى صبغة علاقات بين أشياء •

وبخضوع السلعة لقوانين السوق (لحاجة المستهلك تأخذ عملية الانتاج صبغة موضوعية (بمعنى خارجية) أكثر فأكثر ، وتطغى الصبغة الشيئية للسلع على محتواها الاجتماعى • ويتجه الانتاج الرأسمالى الى اخفاء الطابع الاجتماعى (والانسانى بالتالى) للانتاج وينزل به الى الدرجة الثانية لحساب الطابع الشيئى والموضوعى القانونى له • ان العلاقات الاجتماعية بين المنتجين تتقنع بواسطة عملية اشتغال السوق وبواسطة شكليات بيع وشراء المنتوجات (١) • ويصاحب اختفاء الجانب الاجتماعى للانتاج لحساب جانبه الموضوعى تنامى قيمة الاشياء والموضوعات وتناقص قيمة العامل البشرى • وفى وضع كهذا يصبح للآلات القيمة السابقة للبشر بينما تنحط القيمة البشرية الى مجرد قيمة آلات • يقول ماركس : «وهكذا نرى السر الذى يحيط بشكل السلعة بسيطا وينحصر فى أنه يعكس

---

٢ ـ نفس المرجع ص ٧٣ •

٣ ـ نفس المرجع ص ٩٨ •

١ ـ نفس المرجع ص ٤٢٤ •

للناس الصفة الاجمالية لعملهم على أنها صفة موضوعية عالقة بمنتجات العمل نفسها ، ويعكسها كذلك بوصفها خاصية اجتماعية طبيعية لهذه الاشياء · يترتب على هذا أن العلاقة الاجتماعية القائمة بين المنتجين والمجموع الكلى لعملهم تبدو بالنسبة اليهم علاقة اجتماعية بين منتجات عملهم لا بينهم أنفسهم» (٢) · كما يرى أن مصير منتجات اليد هو نفس مصير منتجات الدماغ الانسانى فى العالم الدينى ، وهو استقلالها وتمتعها بكيان خاص وقدرتها على التواصل فيما بينها ومع الناس ، تستقبل هذه القوى الاجتماعية عن الناس وتعود لتسيطر عليهم وتشعرهم بقدرية وحتمية بل وبأبدية الاوضاع السائدة ·

ويقدم ماركس تعليلا اجتماعيا للتشيؤ ، بمعنى أنه وليد نمط انتاج اجتماعى معين أى انه معلول لكيفية التنظيم الاجتماعى لعملية الانتاج · فالتشيؤ ليس معلولا للتقنية أى للقوة المنتجة الميتة بل لعلاقات الانتاج الاجتماعية السائدة ، هذه العلاقات التى تفرض تحويل كل النشاطات الانسانية وكل المنتجات الى سلع أى الى أشياء تحمل فى ذاتها قيمة تبادلية ·

**ماذا يعنى التمسك بمفهوم الاستلاب :**

يبدو اذن أن تحليل ماركس للتشيؤ أوضح موضوعا وأدق منهجا من تحليله للاستلاب · فهو يرجع الاستلاب الى الملكية الخاصة والى تقسيم العمل بالدرجة الاولى ثم الى تحول قوة العمل الى بضاعة · ولكن ذلك كان من قبيل الحدس الفلسفى · اذ أن ماركس بعد أن قام بتشريح سوسيولوجى واقتصادى للمجتمع الرأسمالى وتبين ميكانيزم اشتغال بنياته الكبيرة والصغيرة استطاع أن يبرز العملية الاجتماعية

---

٢ ــ كارل ماركس : رأس المال · ترجمة راشد البراوى ج ١ ص ٣٥ · ونشير الى عدم التطابق البين بين الترجمة العربية والترجمة الفرنسية (لابلياد ج ١ ص ٦٠٦) (أنظر أيضا : ج · اسرائيل : الاستلاب ·· ص ٤٢٤ ــ ٤٢٥) ·

التى تولد التشيؤ ، وهى عملية تحول الموضوعات الى سلع ، وكيف أن القوة التى يتم بها هذا التحول تسرى على المجتمع كله · نحن اذن ـ بصدد التشيؤ ـ أمام تحليل علمى دقيق لكيفية عمل نمط اجتماعى معين (هو النمط الرأسمالى) ، ولسنا أمام حالة عامة (هى الاستلاب) تتميز بتوفر عوامل معينة (الثالوث العلى للاستلاب) · وهذا ما يبرر قولنا أن الانتقال من نظرية الاستلاب الى نظرية التشيؤ هو انتقال من الوعى الفلسفى العام والمجرد الى الوعى العلمى الدقيق· وعلى الصعيد الايديولوجى هو انتقال من مشكلة تحقيق الذات الانسانية الفردية الى مشكلة التنظيم العقلانى والواعى للعملية وللتطور الاجتماعى (١) ·

يبدو اذن أن الاستلاب مفهوم ايديولوجى بالمعنى الذى يفترضه التوسير ، أى انه مفهوم يشير الى مجموعة من الوقائع الموجودة ولكنه ـ بعكس المفهوم العلمى ـ لايقدم طريقة أو واسطة معرفتها (٢) ، وبالتالى لايمكن أن يعين نظريا بنيتها الخاصة ·

لست أبتغى من خلال ما سبق التجنى القبلى على المحتوى النظرى لمفهوم الاستلاب ولا انكار وظيفته الايديولوجية بل ان كل مطمحى هو محاولة وضع المفهوم فى سياقه الحقيقى أى فى موقعه بالضبط من مجرى تفكير ماركس · وان تجاهل هذا القانون يقود الى خلط وبلبلة · فالاستلاب من حيث هو سليل المثالية الالمانية ، مرتبط بالمرحلة العقلانية والانثرلوبولوجية عند ماركس · وبما أن المادة التاريخية (أى ما يعادل اليوم العلوم الانسانية) ستأخذ فى التحدد ابتداء من «الموضوعات عن فويرباخ» و «الايديولوجيا الالمانية» فان الوقوف عند مصطلحات ومفاهيم الشباب يجمد ماركس فى لحظة تطور ويسمره على هلالها دون أن يشعر · هذا الخطأ المنهجى يحول لحظة تطور نسبية الى لحظة مطلقة ، وفى ذلك اغفال الجدلية تطور فكر ماركس الذى هو فكر متحرك وفى سعى دائب نحو معانقة

١ ـ ج · اسرائيل : الاستلاب ·· ص ٤١٧ ·
٢ ـ آلتوسير : من أجل ماركس ص ٢٢٩ ·

الواقع . كما قد يقود هذا الخطأ الى تقديم تأويل مثالى أو ذى نزعة انسانية مجردة لاعمال ماركس (لوفيفر ـ غارودى) .

الاستلاب مفهوم سابق على الماركسية زمنيا ثم هو مفهوم سابق على المادية التاريخية ، ذلك ان ثلاث عشرة سنة التى تفصل نظرية الاستلاب عن فيتيشية السلعة ليست فقط **فاصلا زمنيا** ، بل انها أيضا **فاصل فكرى** وابستمولوجى جدير بكل الاهمية التى لم تعطه الى الان .

ماهى اذن القاعدة الاجتماعية الكامنة وراء ارتفاع القيمة الاستعمالية لمفهوم الاستلاب ؟ لعل ما يجتذب فى هذا المصطلح هو غرابته الاثرية ، ولكنه من ناحية أخرى يستجيب لادراك عام وغير متحدد للظواهر الاجتماعية كأن نقول ان شخصا ما مريض دون أن يلزمك ذلك تشخيص هذا المرض وتحديده . يعكس هذا المفهوم اذن ادراك بعض الفئات الاجتماعية الغامض للظواهر الاجتماعية ويستجيب لحاجتها الى مفهوم عائم لادراك عائم .

ان الواقع الاجتماعى فى المجتمعات المستعمرة سابقا واقع أكثر تعقيدا بما لايقاس وأكثر تشابكا من الواقع الاجتماعى الواضح المعالم فى العالم المتقدم بفعل تأثير عملية الفرز الاجتماعى الناجمة عن الصراع الطبقى فى المجتمعات المتقدمة ، وبفعل التداخل الاجتماعى وتنوع المؤثرات فى المجتمعات المستعمرة سابقا ، وذاك هو الاساس الاجتماعى لادراك غير واضح للبنيات الاجتماعية ولمظاهر الصراع الاجتماعى . وهنا يتعين أن يأتى الوضوح النظرى ، والتخلى عن المفاهيم السديمية ليعوض هذا التعقيد والتنوع اللامتناهى فى البنى الاجتماعية .

ان هذا المفهوم يمكن أن يكون مفيدا فى جدال سياسى أو فى مبارزة ايديولوجية ولكنه لايمتلك نفس القيمة فى منهج علمى أو بناء نظرى .

عبد السلام الزيتوني

# تلـــويحة فجر

لاجلـك
ناولت للريح مهله
وناديت بالعاصفات :
اهدئـي
لك الليل
والليل منك انتهى
فلا تقلقى الشمس
أو تطفئـي
فليس بجفن السحابة عقم
ومن غضبة الرعد
لاتهزئـي
ولكن تعاويذنا للصخور
كساها الصقيع
فلم تدفـأ
فهلا تداعت سدوم
وبانت هياكل صخر
على المرفـأ ؟
أرى الريح

تحسر ما علقته الظنون

بهيكلك الجامـد

تعريك

من سلطة الوهم صبحا

وتنكص

عن صوتك الراعد

وفى السوق

يأكل منك الذباب

وينمو الجذام على الساعد

خدعنـا

بحبك أمس

ومتنـا

على الحـب

أكثر من واحـد

ولكن للحالم يقظة

وقد لوح الفجر

للراقـد ٠

مكنـاس

عبد السلام الزيتونى

سالم يفوت

# قيمة الفلسفة الوضعية

يطلق اسم وضعية على كل تفكير يحاول أن يجعل من العلم «النموذج المثالي» الممتاز للمعرفة واضعا اياه فوق باقي أنماط التفكير الاخرى خرافية دينية كانت أم فلسفية ايديولوجية . ونظرا للتأييد والترحاب الكبير الذى تلقاه هذه الفلسفة عند المفكرين الغربيين لاسباب تاريخية معروفة وحتى عند كثير من مفكرى البلدان المتخلفة والعالم العربى على الخصوص لاسباب ترجع فى جلها الى انبهارهم بالعلم والتقنية الغربية واعتقادهم أنها السبيل الاوحد للخروج من التخلف ، نظرا لكل ذلك لابد من تقويم نقدى لهذه الفلسفة يعطيها مكانتها الفلسفية والايديولوجية مبرزا ارتباطها الفكرى والايديولوجى بيقظة البورجوازية فى فرنسا بعد الثورة الفرنسية كقوة رجعية مضادة لكل تفكير تقدمى .

ما حدا بى الى ذلك هو أنه عدا ما كتبه ماركس وانجلز ولينين (على الخصوص المادية والمذهب التجريبى النقدى) والمفكرون الماركسيون (على الخصوص المفكر والعالم الروسى فاطالييف) ، لانعثر بصفة عامة الا على نوعين من النقد وجها الى الفلسفة الوضعية : نقد يدعى بالنقد الداخلى يحاول أن يبرز تناقضها الداخلى وتهافت أسسها الفلسفية وعدم تماسك قضاياها ، والواضح أن مثل هذا النقد لايعدو فى الاخير أن يكون «لعبة فلسفية» تترك جوهر المشكل وعمقه وتتجه الى جزئياته وسطحياته ، أقول «لعبة فلسفية» بالمعنى الاستهزائى لكلمة فلسفة أى عندما تصبح هذه الاخيرة تقارعا

للالفاظ بالالفاظ . ثم نقد خارجي ينطلق من قواعد ومنطلقات رجعية مناهضة للعلم معتمدا فى ذلك على المزاعم الروحانية التى ظهرت على الخصوص فى فرنسا النصف الاخير من القرن التاسع عشر والاول من القرن العشرين كرد فعل ضد الوضعية ومدعيا أن العلم لايبلغ الا المجال المادى من الاشياء (أى الظواهر) أما ما بعد الظواهر فلا يستطيع أن يبلغه وبالتالى ان الفلسفة لابد أن يكون لها محل من الاعراب من حيث أنها تبدأ حيثما ينتهى العلم ويعلن فشله . أما نقدنا فسيكون كشفا وتعرية للخلفيات الايديولوجية الثاوية وراء الوضعية من حيث تبرير نظرى لاختيار سياسى معين .

★ ★ ★

ظهرت الفلسفة الوضعية فى القرن التاسع عشر فى فرنسا على الخصوص وعلى يد أوجست كونت A. Comte (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) في وقت حققت فيه العلوم انتصارات كبرى وغزت جميع المجالات الطبيعية ، وكان ذلك بفضل تقدم المنهج التجريبى واتساع مجال استعماله . لذا يمكن القول ان الشكل الذى اتخذته الوضعية فى بدايتها كان شكل اعجاب بالعلوم الطبيعية وبالمنهج التجريبى وذلك تمييزا له عن الشكل الذى اتخذته فيما بعد أى من النصف الاول من القرن العشرين الذى كان شكل اعجاب بالعلوم المنطقية الرياضية خصوصا مع برترند راسل وجماعة فيينا ... أى مع ما يدعى بالوضعية المنطقية الجديدة .

من حيث الانتماء الطبقى ، كان أوجست كونت بورجوازيا ، استطاع أن يدرس بمعهد «البوليتكنيك» وهذا شىء له دلالته ، اذ ان ذلك المعهد لم يكن يسمح بالدخول اليه الا لابناء الطبقة المحظوظة ، وقد أتيت بهذه الملاحظة لابين أن أوجست فى موقفه من انماط التفكير «غير العلمى» وفى نظرته الفلسفية للامور كان يتحدث بمنطق بورجوازى محافظ يهمه استمرار الوضع القائم عقب الثورة الفرنسية وهذا سوف يتجلى لنا بوضوح .

عاش كونت في فترة كانت الثورة الفرنسية هي الظاهرة الاجتماعية الكبرى التي سيطرت عليها • ويمكن القول أن الثورة لم تنته نهاية «منطقية» آخذا بعين الاعتبار التحريف السياسي لمكاسب الثورة وأهدافها ، ذلك التحريف الذي تم على يد نابليون الذي حول الحكم من جمهوري الى ملكي ديكتاتوري ، آخذا بعين الاعتبار كذلك التناقضات الاجتماعية الطبقية التي أصبح المجتمع الفرنسي بعد الثورة مسرحا لها وظهور الافكار المنتقدة للمجتمع وللسياسة النابوليونية ، وهي أفكار كانت معادية لكل اصلاح في اطار ما هو قائم واتفقت جميعها على ضرورة التغيير وان اختلفت سبلها في ذلك • فلا غرو اذن أن نجد أن نابليون نفسه أدرك مدى خطورة «الفلسفة الجذرية» المنتشرة في عصره فكان رد فعله هو حذف دراسة الفلسفة نهائيا من المعاهد ورميه للمفكرين بالجوفائية والثرثرة حيث يقول : «لقد صنفت جميع أولئك الناس تحت اسم الايديولوجيين أي حرفيا صانعي الافكار : وقد سول لهم غرورهم أن يتدخلوا في شؤن حكمي • يا لهم من ثرثارين • ان تطبيق كلمة ايديولوجيا هذه عليهم قد جعلهم مهزأة الناس أكثر مما كنت أتوقع • وقد لاقت الكلمة رواجا وأعتقد أنها جاءت مني» • ان موقف نابليون المعادي للفلسفة والفكر سببه خوفه من أن تتحول تلك الافكار الى ممارسة تتجاوز ما هو قائم ، ذلك الخوف الذي أعطاه أوجست كونت «ذي الميول المحافظة» صياغة فكرية فلسفية ضمنها «قانون الحالات الثلاث» •

وجدت الافكار الثورية مرتعا خصبا لها ، قبل وابان وبعد الثورة الفرنسية ، في المجتمع الفرنسي حيث احتدت الازمة الاقتصادية التي كان من مظاهرها تفاحش الاستغلال وتفاحش البطالة كنتيجة من نتائج التقدم العلمي الصناعي ، وانحطاط المستوى الاجتماعي والاخلاقي ، كل هذه كانت دوافع حاسمة لظهور فكر اشتراكي معادي للطبقة الوسطى وللاختيار الليبرالي وللنظام العفن السائد في فرنسا • هنا لابد من الحديث عن فلسفة هيجل

(١٧٧٠ ـ ١٨٣١) التى رغم بعدها المكانى عن مسرح الاحداث لقيت ترحيبا كبيرا من حيث أنها فلسفة سارت بموازاة مع ما جاءت بـه الثورة العلمية من قول بالتطور والتغيير والتحول الذى يشمل كل شىء حتى المجتمع والحياة الاجتماعية • وتكمن أهمية هذه الفلسفة فى قولها بالنفى أو السلب والتجاوز المستمر • يقول انجلز : «ان الحقيقة فى نظره (أى هيجل) أصبحت عملية تجرى من التطـور التاريخى الطويل للعلم الذى يصعد من درجات دنيا الى درجات أعلى فأعلى فى سلم المعرفة (•••) ان المجتمع الكامل والدولة الكاملة انما هما شيئان لايوجدان الا فى مخيلـة الانسـان ، ان جميـع النظـم الاجتماعية التى تتابعت فى التاريخ ليست سوى مراحل انتقاليـة لتطور المجتمع الانسانى الذى لانهاية له ، من درجة دنيا الى درجـة عليا ، فكل درجة ضرورية ويبررها بالتالى العصر والظروف التـى ترجع اليها ولكنها زائلة عديمة المعنى فى ظروف أرقى • انها مضطرة الى أن تخلى المكان لشىء آخر ليظهر محلهـا» (فوير بـاخ ونهايـة الفلسفة الكلاسيكية الالمانية) •

وقد ذهب «هربرت ماركوز» فى كتابه «العقل والثورة» الى أن هيجل رغم رجعية مواقفه السياسية ، كان المسار الفلسفى لفكـره مسارا ثوريا باعتبار أن الجدل لديه رغم مظهره المثالى كان يحمـل جنينا ثوريا ويحمل فى أحشائه تعبيرا عن الرفض أى رفض كل وضع قائم ودعوة الى تجاوزه ، أو بعبارة أوضح كانت الفلسفة الهيجلية فى نظره «فلسفة سلبية» (خلافـا للفلسفـة الايجابيـة = الوضعيـة Positivisme ) نتائجها الحتمية والمنطقية هى نقد كل شـىء ، ترى أن داخل كل شىء امكانيات ثورية نافية • هذا الجنين الثورى هو الذى أخرجه ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) الذى عاصر كونت ، الى الوجود على الخصوص فى «المخطوطات الاقتصادية الفلسفية» سنة ١٨٤٤ ثم فى الكتابات التى تلت من بعد وعلى الخصوص كتابـات الشباب (أقصد قبل صدور «مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسـى»

١٨٥٩ وهي كتابات كان كونت على علم بها) • والطابع الاساسي للجدل الماركسي كان هو طابع النفي والسلب من حيث ان الواقع ليس ايجابيا «وضعيا» الا باطلاق الامكانات التغييرية الكامنة فيه ، هذا الاطلاق أو التحرير ، وهو نفي النفي ، يتحقق باقامة نظام جديد للاشياء •

لابد كذلك من الاشارة الى الاتجاهات الثورية التي نشأت ابان وبعد الثورة الفرنسية في فرنسا بالذات كالاتجاه الفوضوي على يد برودون (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) وهو اتجاه «سلبي» يرى منبع الشر والفساد في وجود الدولة وأجهزتها وفي القضاء على الملكية بوصفها حجر زاوية الاستغلال و «سرقة مقنعة» • ثم الاتجاهات الاشتراكية الخيالية على الخصوص مع فورييه (١٧٧٢ ـ ١٨٣٧) وسان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) ، وقد كانت جميعها اتجاهات «نافية» أدركت أن النظام الكامن وراء الليبرالية يحمل في طياته بذور القضاء عليه •

في هذا الجو الفكري والاجتماعي ظهرت الوضعية وأعطت فيه لنفسها طابع (الايجاب والقبول = Positivisme ) وهو شيء لايمكن أن يفهم الا في معنى سياسي أي الرضى والقبول (مقابل الرفض الثوري) للاوضاع الراهنة وتأييدها خلافا للطعن الذي تعرضت له هذه الاوضاع من طرف الفلسفات النافية • الفلسفة الوضعية لاتمكن فهم حقيقتها الا في مقابلتها مع الخصم الذي كانت تتوجه اليه وتحاربه باعتبارها رد فعل ضد الاتجاهات الثورية والنقدية التي تشوش على الناس انشدادهم الى «الواقع» و «المعطى» وقبولهم له ، ان الفلسفة الوضعية تستهدف تأكيد النظام القائم ضد أولئك الذين أكدوا الحاجة الى نفيه • يقول ماركوز : «أما فلسفة كونت الوضعية فتضع الاطار العام لنظرية اجتماعية يراد لها أن تبطل تأثير هذه الاتجاهات «السلبية» فهي تصل الى دفاع ايديولوجي عن مجتمع الطبقة الوسطى ، وتحمل أيضا بذور تبرير فلسفي للنزعة التسلطية» • ربما لانفهم ذلك بكيفية أوضح الا عندما نأخذ نظرة عن

نظرية كونت الاجتماعية • لقد انتبه الى وجود مشاكل اجتماعيـة ، لذا قال بضرورة وجود علم يمكننا من العثور على أسس عقلية ثابتة تصلح أن تكون دعامة لمجتمع فاضل وتصلح أن تكون قواعد لاصلاح المجتمع ، مجتمع ما بعد الثورة الفرنسية ، اذ كان من اللازم في نظره وضع حد لتلك الفوضى والا انتهى الامر الى ما لاتحمد عقباه (بالفعل حدثت ثورة ١٨٤٨ ثم كومونة ١٨٧٠) • وقد كان كونت هنا يتحدث بمنطق البورجوازي المحافظ الذي كان يتوجس خيفة من سقـوط الحكم بيد «العامة» • لذا قال بضرورة البحـث عن «علـم» يدرس المجتمع على أسس «وضعية» «ايجابية وليست سلبية» مبتعدا عـن كل تفكير ديني أو فلسفي ، والغرض من قوله بضرورة ابعاد التفكير الفلسفي هو محاولته ابعاد ارتباط الفلسفات الثورية فـي عصـره كالفوضوية والاشتراكية والماركسية بالنظرية الاجتماعية ، أما سبب قوله بضرورة ابعاد التفكير الديني فهو احتقاره للمسيحية ، وهـو احتقار كان منتشرا بين غالبية المفكرين البرجوازيين في هذا العصر بل حتى عند نابليون نفسه (عندما أكون في الفاتيكان فأنا مسيحي وعندما أكون في مصر فأنا مسلم) • لذا اتجه كونت اتجاها «وضعيا» متطرفا بل حتى في وضعه لعلم الاجتماع حاول أن يعطي لهذا العلـم مظهرا علميا متطرفا حيث سماه «الفيزيـاء الاجتماعية» أي فيزيـاء تدرس الظواهر الاجتماعية بخلاف الفيزياء التـي تدرس الظواهـر الطبيعية • وقد عرفه كما يلي : «هو الدراسة الوضعية = الايجابية لمجموع القوانين الرئيسية الخاصة بالحوادث الاجتماعية» • تسمية هذا العلم والتعريف الذي أعطى له تجعلنا على بينة من شيء وهو أن كونت كان يلح أيما الحاح على أن يكون علم الاجتمـاع مستوفيـا كالفيزياء لشرط «الوضعية» أي وصف الظاهـرة أو ما هو معطـى بتجرد عن كل أفكار مسبقة ايديولوجية كانت أو فلسفية • وان دل هذا على شيء فانما يـدل على حـرص كونت على نـزع الصفـة الايديولوجية عن «علم الاجتماع» بوصفه علما انسانيا وادراجه فـي مصاف العلوم الوصفية التي تكتفي بملاحظة «ما هو معطى» أو «ماهو

كائن» دون تعديه الى «ما ينبغي أن يكون» أى الرضا بالمعطى الموجود باعتبار أن الواقع الموجود هو الحقيقى والمعقول وأن كل تخطى وتجاوز له يبقى ضربا من اللامعقول ونكوصا بالفكر البشرى نحو أشكال حجرية عتيقة من التفكير ، خرافية خيالية .

بهذا تكون الوضعية دفاعا فكريا عن «الجمود» والسكون ضد كل اتجاه نحو التغيير الجذرى للاوضاع . صحيح انها لم تكن تعارض فى التقدم والاصلاح ، لكن التقدم ينبغى أن يتم ضمن شروط ما هو قائم وفى حدود «قبول الوضع الراهن» ، بتعبير أفضل التقدم الذى تقبل به الوضعية هو التقدم الكمى لا التقدم الكيفى . وما يؤيد ذلك هو شعار السياسة الوضعية الذى كان يردده أوجست كونت : «الحب مبدؤنا والنظام قاعدتنا والتقدم غايتنا» ، يعطى كونت الحب فى معناه الانسانى كبديل للصراع الطبقى وكمحاولة لتغطية التنافر بين المصالح الطبقية . أما تمسكه بالنظام كقاعدة فهو يعكس تشبثه بما هو قائم ومعاداته لكل فكر يهدف الى التغيير والتدمير والنفى ، كل هذا سيجعل مفهومه للتقدم مفهوما سكونيا كميا لا ديناميكيا كيفيا . ولا أجد هنا أحسن من أن أورد نصوصا لكونت من «دروس فى الفلسفة الوضعية» لتكون هى نفسها شاهدا على ما ذكرناه مثلا : «الفلسفة الوضعية هى وحدها القادرة على أن تثبت فى الناس الشعور بأنه ليس ثمة أهمية حقيقية لاى تغيير سياسى فى الحالة الراهنة لافكارهم» «النظام بالنسبة لهذه الفلسفة الجديدة سوف يكون باستمرار هو الشرط الاساسى للتقدم» (ص ١٤١) الوضعية تميل الى «تركيز كل قوة فى أيدى أولئك الذين يملكون هذه القوة أيا كانوا» والى «تأمين الطبقات الحاكمة ضد كل غزو فوضوى» (نقلا عن ماركوز ص ٣٣٢) . لقد كان غرض أوجست كونت هو أن يجعلنا ننظر الى الظواهر الاجتماعية بحياد كما ينظر العالم الفيزيائى لظواهره وأن نتمسك بالواقع وبالمعطيات . وبالفعل قد لاحظ لينين فى «المادية والمذهب التجريبى النقدى» فى انتقاده للتجريبية النقدية عند

ارنست ماخ E. Mach (١٨٣٨ ـ ١٩١٦) وعند أفيناريوس Avenarius أن مفهوم العلم عند هؤلاء مفهوم وضعى لا يتجاوز الاكتفاء بالمعطى المحسوس . يقول ماخ فى تعريفه للعلم : «لايمكن أن يكون للعلم من مهمة سوى : ١ ـ البحث عن قوانين الارتباطات بين التمثلات (علم النفس) . ٢ ـ اكتشاف قوانين الارتباطات بين الاحساسات (الفيزياء) . ٣ ـ تفسير قوانين الارتباطات بين الاحساسات والتمثلات (علم النفس الفيزيائى) ». (نقلا عن لينين ص ٣٨) .

وهذه النقطة بالضبط أى توجيه الفكر نحو الامور الواقعة ، ورفع مكانة التجربة بحيث تصبح هى القول الفصل فى كل معرفة والتمسك بالمعطيات «المحسوسة» هى السمة المشتركة بين الوضعية فى القرن التاسع عشر سواء مع كونت أو أصحاب التجريبية النقدية والوضعية الجديدة المنطقية مع راسل وشليك وكرناب وفتجنشتين . يتجلى هذا فى كون الوضعية المنطقية الجديدة لاتعترف بأى معيار آخر للحقيقة غير الادراكات الحسية ولا بأى مصدر آخر للمعرفة سوى العلم . يقول فتجنشتين : «المنهج الصحيح فى الفلسفة هو ألا نقول شيئا خارج العلم» لان العلم يكتفى بنفسه ، والحقيقة التى يدرسها هى الحقيقة الوحيدة ودور الفلسفة هو «التوضيح المنطقى للافكار» (ص ٨٢) وتحليلها تحليلا منطقيا . لذا نجد أن مفهوم الوضعيين الجدد للفلسفة يقوم على تحقير قيمتها كبحث أو فى بعض الاحوال (مع راسل) الاعتراف بقيمتها من حيث أنها تستجيب لذلك النزوع الطبيعى فى الانسان نحو تجاوز الطبيعة . أما أن تكون العلاقة بين الفلسفة والعلم على نحو آخر كأن تصبح الفلسفة حصيلة وجماع تعميم نتائج العلوم ومكتسباتها وقاعدتها المنهجية فى نفس الوقت ، فهذا ما لايقبلونه وما يرفضونه رفضا قاطعا . وهو رفض عبر عنه رسميا «غوسنيط» فى المؤتمر الدولى الثانى للاتحاد العالمى لفلسفة العلوم . ما الدافع بهم الى رفض ذلك ؟ رفضوا أن تكون

الفلسفة حصيلة تعميم نتائج العلوم ومصدر قاعدتها المنهجية ، لان تلك بالضبط هي العلاقة الموجودة بين المادية الجدلية وسائر العلوم باعتبار أن ظهور المادية الجدلية اقترن تاريخيا بتطور العلوم الطبيعية وان تقدم وتطور العلم لازال يؤكد ويثبت ما قالت به المادية الجدلية، كما اقترن بالمسيرة الطويلة للتطور الاجتماعي والتي تجلت في انتشار الحركة العمالية كقوة جديدة .

ان معاداة الوضعيين الجدد للفلسفة كانت تحركها من خلف معاداة مضمرة للماركسية بوصفها ايديولوجية علمية ، وهي معاداة لم تقف عند حد الحملة على الفلسفة الماركسية بل تعدت ذلك الى تشويه بعض الحقائق العلمية واعطائها تفسيرات مثالية ، وهذ ان دل على شيء فانما يدل على ذعر الوضعية الجديدة من الحركة «النافية» الثورية التي قاعدتها هي الماركسية باعتبارها الفلسفة التي يرتبط فيها الفكر بالممارسة العملية وبالسعي الى التغيير .

★ ★ ★

هذه هي حقيقة الوضعية ، انها تبرير فلسفي فكري لاختيارات سياسية وتغليف «علمي» لمعاداة العلم في مضمونه الثوري التطوري واستغلال «للعلم» لخدمة خلفيات وأغراض غير علمية .

رغم ذلك ، يطلع علينا زكي نجيب محمود في أحد مقالاته المتأخرة بمجلة الفكر المعاصر أيام كان رئيسا لتحريرها بمقال سماه «الماركسية منهجا» حاول فيه جريا على عادته «امتداح العلم» و «هجاء الفلسفة» بما فيها «الفلسفة الماركسية» ومعتبرا أن هذه الاخيرة لاتعدو أن تكون كمثيلاتها لغوا كلاميا وأنه «يكفي الانسانية ما قد عانته في القرون الطوال الماضية من كثرة اللغو اللفظي الذي لايشفع ولا ينفع ، فالمجتمع لايشفى من علله بالمواعظ ، وانما يشفى بالعلم نظرية وتطبيقا» .

لقد قلت في بداية هذا المقال أن مسألة انشداد بعض المفكرين العرب الى «الوضعية» أو «الوجودية» هي مسألة انبهار واعجاب فقط و «استجلاب» لوعي خاطيء ، غير أني أراجع نفسي قائلا أن المسألة أعمق من أن تكون مسألة انبهار بل انها علاقة باختيار ايديولوجي عن قصد ووعي وتدبر ، اختيار يساير مطامح وروى منظرى البرجوازية الوطنية في العالم العربي الذين كان يهمهم التقدم ، تقدم المجتمع في اطار هياكله القائمة أو بتعبير أفضل اصلاح المجتمع لاتغييره ، تجلى ذلك في الحملة المسعورة التي شنها بعض مثقفي مصر ضد الماركسية اما باسم الوضعية والعلم وبدعوى أن «الماركسية من حيث موضوعها ومادتها ، بها ثغرات في منهج استدلالاتها» على حد تعبير زكي نجيب محمود أو باسم «الحياد الفلسفي» على وزن «الحياد السياسي» على الخصوص مع يحيى هويدي .. أو .... حقا لايمكن لاي كان أن يطعن في قيمة العلم والمعرفة العلمية . غير أن السؤال الذى لايجيبنا عنه زكي نجيب محمود هو من سيستفيد من تسخير العلم ولاية أغراض سوف نستغله ؟ ألاغراض خدمة اختيارات شعبية حقة ام لاغراض خدمة مجتمع استهلاكي استغلالي ؟ كيفما كان الجواب فانه سيفصح لنا عن ارتباطات العلم بالايديولوجيا وبالمطامح الطبقية وبالاختيارات اما الرجعية أو الوسطية أو الثورية .

البيضاء : سالم يفوت

المراجع :


١ – فريدريك انجلز – فوير باخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية – الطبعة العربية – موسكو .

٢ – هربرت ماركوز – العقل والثورة – ترجمة فؤاد زكريا – ١٩٦٠ .

٣ – زكي نجيب محمود – الماركسية منهجا – الفكر المعاصر – العدد الثالث – مايو ١٩٦٥ .

٤ – فؤاد زكرياء – الوضعية بين لينين وماركوز – الفكر المعاصر – يونيو ١٩٧٠ .

5. — KH. Fataliev. Matérialisme dialectique et sciences de la nature. Ed. de Moscou.

6. — Lénine. Matérialisme et Empirio - Criticisme. Vol. 14. Ed. de Moscou.

7. — Auguste Comte. Cours de Philosophie positive. Ed. Garnier. T. 2.

8. — Ludwig Wittgeustein. Tractatus logico philosophicus. Coll. Idées, n° 264.

# كريم الناصري لقلق الكنيسة في الفعل والتجربة

عبد القادر الشاوى

## ١ ـ الموقف ضد الموقف .

كريم الناصرى فى (الوشم) يتموضع فى بعدين :

١ ـ البعد الذى يدلل فى الوقت الذى يتهم الايديولوجية السائدة فى العالم العربى ، من وجهة نظر نقدية، تضع محل التجربة، مواقع الفعل ، وأسبابه وخلفياته ومعطياته على مستويات متعددة (ذاتيا وموضوعيا) .

٢ ـ البعد الذى يفضح عجز المثقفين العرب (كجبهة طبقية غير متجانسة) فى احداث أى تغيير ضمنى أو خارجى فى مواقفهم وسلوكهم وعلاقتهم . ولابد وأن يكون هذا العجز ، الحدث الرسمى المسجل ، حتى يقوم شاهد اثبات على الواقع الثقافى فى العالم العربى بعلاته وتناقضاته (السلبية والايجابية) .

---

١ ـ صدرت عن دار العودة ١٩٧١ بيروت .

ومن هذه الزاوية ، لايمكن أن يكون كريم الناصرى الا «شهادة» على هذين البعدين فى الواقع العربى القائم ، وأيضا هو البعد التاريخى الذى يجسد «الفعل» البورجوازى الصغير فى الساحة العربية بعد **١٩٥٢** وما تلاها من أحداث ووقائع ، رافقها تغير نوعى وكيفى فى مستوى التجارب : فكريا ، سياسيا ، اقتصاديا ، اجتماعيا •

هناك جملة من الخصائص المتميزة والمتفردة أيضا ، يمكن أن نهتدى بها ، فى فهم ما أعبر عنه «بالفعل» البورجوازى الصغير فى حياة ـ سلوك كريم الناصرى وغيره من أشخاص الوبيعى ، على اعتبار أنهم شرائح تعكس فقط ، ماهو موجود بالفعل ، وما هو قائم بالفعل فى مجموع الوطن العربى • ان كريم الناصرى ، حسون السلمان ، مريم عبد الله ، مجيد عمران ، أسيل عمران ، حامد الشعلان ، علوان الحلاق ، محسن خليل ، رياض قاسم ، وآخرون ، فى الموقف العام ، **هم أبطال اللعبة التراجيدية فى العالم العربى** ، ما يجمع بينهم ، هو ما يفرقهم ، خصائص ذات طابع «أحادى البعد» : الازدواجية ، الانهزام ، السياسة ، الجنس ، الضياع ، الفراغ ••• ـ فى حياة هؤلاء ـ تتحول الى زاد يومى ، ومن ثم تصبح «مشروع» حياة على المدى الطويل •

وفى هذا المستوى يمكن أن نطل على الواقع فى العالم العربى، من حيث تبدأ هذه التناقضات (ذاتيا وموضوعيا) ، كتعبير عن الاضطراب المجتمعى والسياسى والاقتصادى فى كل قطر ، لنجد أن أن ما يأتى ذكره على لسان هؤلاء الاشخاص «كعلامات» فقط ، ليس الا التعبير الاسمى عن تطلعات فئوية فى مستوى طبقى معين • (الوشم) رواية فئوية أيضا ، عندما تأتى على أحلام هؤلاء فتضعها فى مقدمة الاهتمامات اليومية ، مبرزة بذلك التناقض الصارخ والحاد بينها وبين أحلام فى أسفل السلم الطبقى فى المجتمع الواحد (المجتمع العراقى على سبيل المثال) • ومن هذا المنظور ذاته يتحقق ما يمكن

أن نسميه (الفن الطبقي) «لا فن فوق الطبقات» ، على اعتبار أن ما تعبر عنه ، هو تحديد الافق الايديولوجي الذى يعكس خصائص «التجمع الفئوى» ، فى (الوشم) فئة المثقفين بمفهوم ما ، الغير المتجانسة ـ المتعارضة فى أسلوب الحياة اليومية ـ فى الممارسة ، وفى أشياء أخرى متعددة • ومن ثم كان أسلوب عملها السياسى والفكرى يفضح هويتها والتشكيل الذى تنحدر منه ، بالقدر الذى لايحدث انفصاما بين «التطلعات» وبين ما هو قائم فى «حياتهم» • وهنا نعثر على سر التآلف ـ الوحدة فى ممارسة أشخاص الربيعى رغم الفوارق الطبقية ، كريم الناصرى ـ حسون ، كريم ـ مريم عبد الله ، كريم ـ أسيل عمران ، كريم ـ يسرى • انهم يتوحدون فى المصير المشروع ، وقد يختلفون فى طرائق البحث عن المصير والوصول اليه • طبيعة «العمل» المشترك هى ما تضعهم أمام مشكل واحد ومشروع واحد •

يمكن أن نعتبر رواية (الوشم) مشروع تعبير روائى عن هذه الحالة (الموقف واحد ، الوسائل متعددة) ومدى ما تتركه من تبعات سلبية ، مشروع تعبير روائى عن «أحلام» المثقفين بعبارة محددة : عما يجمعهم ، عما يفرقهم ، عن الاهتمامات ، عن التطلعات ، عن «المطلق» الخاص والعام فى حياتهم ، عن التعارض • ما تقوله (الرواية) فى التحليل الاخير ، لايتجاوز هذه الوقائع ، لذا جاء **الموقف الفكرى** ، كتعبير عن نهاية فاشلة ، حزينة ، بلا معنى ، بلا هدف فى «حياة» المثقفين الذين تشملهم الرواية ، فى العالم العربى • وهذا فى حد ذاته اعلان تاريخى عن فشل التفكير البورجوازى الصغير ، أو نكوصه أو تخاذله فى عموم الاقطار العربية ، عن بلوغ «الهدف» فى انجاز مهام المرحلة ثقافيا ، أو طرح بديل موضوعى للثقافة الرجعية ـ اليمينية السائدة • (باعتبار أن «وكلاء» أنظمة بورجوازيات الدولة فى العالم العربى ، هم المثقفون البورجوازيون أنفسهم) •

هذا العجز التاريخي ، يفضح بشكل أو بآخر موقف الناصري كنموذج بارز ، ويظهر موقفه الحقيقي • ان مجموع اهتماماته تتكشف من خلال بحثه الدائم عن مستقر نفسي ، عن معادل ايديولوجي يفرغ فيه همومه السياسية ، أخيرا عن هدف • وكل المؤديات تفضي به بالمقابل الى التخاذل بحثا ، والى الاستسلام معاناة ، الى القلق لانعدام رؤيته الواضحة لاموره ومستلزماته ، وانعدام موقفه الثابت منها • وستكون النتيجة التي يطمح اليها ، أو التي يصل اليها طوعا ، هي الانفصام الذاتي والسلوكي ، الذي يأتي التعبير عنه في شكل مونولوج داخلي ، يسترد به ذكرياته ووقائع حياته : في المعتقل ، في «معركة» الحياة اليومية ، في علاقاته ، في وجوده العام ــ الشخصي (فاعل ، ومنفعل) •

ان هذا الوضع بصورته المتحققة ، يدلل بأكثر من معنى في حياة الناصري عن موقفه المتراوح بين شتى المواقف ، ولان حياته تكتنفها الرتابة المملة ، التناقض ــ الفراغ ــ العجز ــ الولع ــ الطموح، يقع في شراك الحلول الجزئية لتلك المواقف ، ومن ثم ينشطر على نفسه في محاولة لقطع «كل» صلاته بعالم يزحف من حوله ، ويريد اكتساحه بأهواله وحوادثه ومشاكله • ان كريم يتشبث لا محالة بطموحه ، لانه الخلاص الاوحد ، ولكنه أيضا يرضخ لمجرد أن هذا الطموح ينتكس أمام التجارب الحياتية (الصعبة والسهلة) • البحث عن «الخلاص» بأي ثمن ، وفي كل شيء ، هو المعادل الموضوعي لسنوات تشرده وغربته وتعبه وعذابه ، ثم لا خلاص اذا ، الا بالانزواء أو الموت ، وهما معا ، من دواعي تجربة العمل السياسي بالنظر الى الوضع «الخصوصي» الذي يعيش فيه كريم وقد عاشه من قبل • التجربة السياسية ، في اطارها الاجتماعي ــ الايديولوجي ، ما كانت لتفضي به الا للسجن (لعدة عوامل موضوعية تتحكم في سير «التاريخ» عربيا : انعدام الحرية ، القهر الطبقي ، محاربة العمل السياسي) • طرح على كريم في ظروف جد استثنائية أن «يعمل» على مستويين :

١ ـ مستوى الحفاظ على طبيعة الاوضاع الراهنة ـ السكونية (فكر ، سلوك ، اقتصاد ، سياسة) • والعمل من ضمن هذه الاوضاع بالنسبة لفكر متقدم ، هو الاقرار النهائي بعجزه عن التعرض لها ، وتخليه عن تحليلها ـ علميا •

٢ ـ مستوى التحرك الفعلي ، وهو ما يمكن أن يوصل في الظروف ذاتها ، الى النهاية التي وقف عندها سالم السرداوى (١) ردا على تحركه السياسي ـ التظري ، ومعنى هذا أن مجرد «التنظير» يقود الى النتيجة التي رتبتها «الانظمة» وفقا لتكوينها الطبقي والايديولوجي ، ومستوى الحفاظ على بقائها من ضمنهما • السجن اذا هو النهاية ـ البداية •

امكانيات كريم العملية ، ارتطمت على أرض صلبة ، شل فيه الطموح النضالي ، وصرف نفسه عن تحقيق سيادته ، وتوظيف قدرته لصالح التطور العام داخل المجتمع • ان طبيعة الفكر الذى انتمى اليه كريم في ظروف العمل السياسي ـ النضالي ، هو الذى قاده ، بمكوناته ، الى القرار النهائي في الممارسة والوجود • العجز الذى انتهى اليه ، لايمكن أن تجد له مبررا الا في الاطار ذاته • اضطر كريم الى البحث عن منفذ ، فكان هذا «الضياع» المستمر بحثا عن عالم مأمول ومتصور • وكان الضياع أيضا بمثابة منبه حاد قاده الى النتائج الآتية :

١ ـ ان السجن مدرسة تربوية ، بمفهوم أخلاقي ، تلقن خصائص الوجود في المجتمع العربي ، بسلوك مقبول ، تمشيا مع الايديولوجيا السائدة التي لايمكن أن تكون الا ايديولوجية الطبقة المسيطرة سياسيا •

٢ ـ الحب قلق نفسي وشعوري ، أو هو ارتباط معنوي سلبي • انه يمنح العزة الذاتية ، ولكن سرعان ما يسلبها ، وكل النتائج المترتبة عنه تقود بصفة خاصة الى السقوط المحقق •

---

١ ـ من رواية يوسف شرورو (الحزن يموت أيضا) دار الآداب ـ يناير ١٩٩٣ •

٣ ـ السياسة فى الظروف الراهنة ، تعادل «بطلان الفعل» ، انها الحاجز الذى يشل المبادرة «الفردية» فى البحث عن عيش مأمول، لايمكن أن يكون الا على حساب المبادىء ٠

٤ ـ ان العلاقات (أى مجموع الروابط الاجتماعية) مرفوضة ، اعتمادا على التناقضات التى تكتنفها ، وتقف فى وجه استمرارها ٠

٥ ـ الانتماء هو الاغتراب بمفهوم وجودى ، فى الذات وفى الموضوعات ، لانه يخل بالتوازن النفسى فى حياة المثقف البورجوازى الصغير : بين الحفاظ على (الانا) كمكسب ولدته التجربة ، وبين الانخراط فى الحياة اليومية ٠

٦ ـ أن تحيا ، فى عالم موبوء ، متعفن ، معناه أن تقتل رغبتك المستمرة فى الحرية ، وأن تكبث غرائزك ، وأن تطعن فى مبادئك ، بتلقائية بدوية ساذجة ، وأن تموت أيضا ، واليقين أن موتك ، ليس أكثر من شبه احتجاج نهائى ، على نوع الحياة المتصورة ٠

٧ ـ ان الدين ، غيب واستسلام فى حالات متعددة ٠ يبقى أن القناعة به ، هى التى تلزم الاستمرار فى اعتناقه (دون قيد ولا شرط) ودون أن يقودك الاستمرار الى البحث عن أسرار المعتقدات ، أو تفسير الاحكام الموثوقة ٠

٨ ـ ان «المدنية» هى رحلة نحو البداية دوما ، أو هى البعد الثانى فى الوجود ، محاصرا ومطاردا ٠

٩ ـ وأخيرا ، الحرية هى ضمان ممارسة (الفعل) برغبة وأمل مشروعين ٠

هذا هو الكادر الذى يحيا فيه كريم الناصرى برؤيته وتفسيره له ٠ ان اصطناعه ـ بهذا الشكل ـ يبدو متمما لرغبة صافية فى الوجود «المشروع» بحرية دائمة ـ مطلقة ، غير متحققة فى ظروف الواقع العربى العام ٠ ومن هنا يجب أن نعتبر سلوك كريم هو

السلوك العادى فى اطاره الطبقى ، من حيث هو رد فعل منسق لسلبيات هذا الواقع ، ومجموع أمراضه ، وبواسطته يطمح تحقيق آماله ، بغض النظر عن النتائج ٠

الصورة الاخرى ، الغير المتحققة فعلا ، صورة مأمولة ، تبرهن بوضوح عجز الناصرى فى توفير هذه المستلزمات الذاتية المرغوبة ، وتقصيره فى بلوغ مداها ، وذلك لاعتبارين :

الاول ــ تكوينه الطبقى ٠

الثانى ــ طبيعةالوضع الذى يعيش فيه ٠

## ٢ ـ البحث عن عالم متصور :

ربما كان الاعتبار الاول هو الذى حدد الناصرى فى (الوشم) ، وشكله فى صورة بارزة تطغى على بقية صور الاشخاص الذين نلتقى بهم فى جو العلاقات العامة ٠ منذ البداية ، عبر : تقرير ــ مونولوج / مونولوج ــ تقرير ، نعرف الناصرى فى صورته المباشرة ، فعلـه ، سلوكه ، كل همومه ومتاعبه : «تنفس كريم الناصرى هواء الشارع بعد اختناق عريض ، سبعة شهور طائرة ، طوقته بدقائقها ورعبها ، هرست منه الدم والعظم والاعصاب ٠ خـرج كريـم سالما ، طويــلا ومبتسما ، يتفقد الاصدقاء ويرد التحية على الآخريــن ، ويستقبـل تهنئتهم بمناسبة اطلاق السراح ، ولكن فى دواخله كان هناك شىء قد نسف ، وهذا الاطار الاعتيادى الوقــور ما هو الا قنــاع لاخفـاء البقايا ، وتغطية التدمير الذى لايرمم» ص ٣ ٠

كريم فى موقف «البطل» أراد أن يكون واضحا ، هو المعتقل فى ظروف الارهاب السياسى ، وهو المنبوذ لتأزم معنوى مشروط بحالات «نوعية» لذلك يتقمص ازدواجية تنم عن سلوك فى التجربة داخــل الثالوث الوجودى : المجتمع ، الحزب ، الجنس ٠ منذ البداية يرسم لنفسه **وضعا** اجتماعيا فى اطار من العلاقات السياسية ، نضاليـا ،

بمفهومه الخاص لها ، وضع البورجوازى الصغير فى المواجهة والتحدى • وكل المواقف المعبرة عن هذا الانتماء ـ الوضع ، فى الرواية ، تعطى الاحساس بأن كريم هو صورة المثقف العربى بعد الهزيمة ، وكل النتائج المترتبة عن المواقف ذاتها ، بالتالى ، هى الوضع العربى الراهن بوقائعه ومشاهده •

ان وضعه المحدد ، هو الذى يفضح مواقفه المتعددة حياتيا ، متداخلة ومتنافرة فى آن ، وليست الا التعبير الامثل عن طموح فاشل ومعنويات متبلدة • وكريم فى البداية والنهاية هو الذى يدخل فى علاقات متوحاة من أفكاره ، وفى أحيان كثيرة منسوجة من خيالاته • ولذلك ـ بصفة خاصة ـ يقع فى تناقضات ، ويسقط فى خواء اللحظات العابرة ، التى تملأ وجوده ـ الثابت •

كريم يلخص «حياته» قائلا : «رجل خسر وظيفته والتزامه ومدينته ، خسر حاضره بكل حرارته وآماله الكبار ، واعتاش على المبلغ الضئيل الذى تسعفنى به عائلتى فى نهاية كل شهر (•••) عينت كمرتب أعتقده مرضيا ، وبه أستطيع مواصلة الاكل والشراب، وقراءة الكتب ومعاشرة البغايا ، فالصحو عذابى ، والندم ما زال يقتص منى ، ويلسع حاضرى ، لذا قررت أن لا أصحو أبدا ، وهذا الرأس سيظل مخدرا حتى النفس الاخير» ص ٩ •

وبين الوظيفة والالتزام والمدنية والحاضر والاكل والشراب والقراءة والبغايا ، يعثر كريم على وجوده المقنن الروتينى ، شىء أشبه بالضياع بمفهوم ما ، لانه يحقق وجود الذات المستلبة • ومن هذه الزاوية ، تتحول (الوشم) الى بكائية الناصرى المهموم بين الفعل (مجموع سلوك ـ معتقدات ـ أفكار ـ قبل الاعتقال) والتجربة (مجموع سلوك ـ معتقدات ـ أفكار ـ بعد الاعتقال) ، وبينهما يفقد كل خصائص وجوده المتميزة «الحذر يستحوذ على جسدى ، ويلح عليه بوخزات سريعة متلاحقة كعشرات الابر ، ولم يعد للحلم فضاء

رحيب ، فالجسد مدان ، وها هو يلوك الايـام الكسولـة ، مفكـرا بأشيائه التي افتقدها» • وعندما يفشل في استرداد علاقاتـه مـع الموضوعات والاشياء ، وبناء «مشروع» حياة جديدة ، يبدأ في البحث الاكيد للواقع الموضوعي بامكانياته المتوفرة ، ومن ثم ينصرف الـى العزاء والتحسر والندب في ذاته وعليها •

ان كريم يصارع فشلا مستمرا فيه ، وخيبة أمل ، يضطـره الواقع الى التسليم بها • ولن تكون المقاومة مـن ضمن «الفعـل» الا العيش بأمنية واحدة مستلذة ، طلبا لحياة مسالمة ، طلبا للاستقرار «ان أهم ما يشغلني الان هو : هل بالامكان أن تكون المـرأة تعويضا كاملا عن الخيبة السياسية ؟ وهل تكفي الان لتكـون ضمادا لكـل الجروح ؟ «ولكن أية امرأة تقدم ذلك ؟» • لعل أسيل عمران أو مريم عبد الله أو يسرى ••• ليست المرأة الا بداية أوهام مكثفة ، محطة اللحظة الذاهبة في حياة كريم • يكتب الى يسرى قائلا : «أنك كنت رائعة وعظيمة وعذراء الروح والجسد والقلب ، وانك الحلم الـذي سأبكي فقدانه في وحدتي وضياعي ، وأنا أتسكع على أرصفة المدن الغريبة ، وأحمله كالسكاكين في قلبي ••• وأدمر وجهي في عـداد ذكرياتك • أريدك أن تبتسمي وتقولي : كان مجنونا مريم الناصري ذاك» ص ٨٩ •

هنا الحكم المسبق على وجود مرفوض ، معاش فعلا ، لكن بلا أمل ، بلا مستقبل يصنعه الفرد كمشروع حياة ، ينسـاب لحظـة تدمره ولا وجوده ، بفهم ما ، وفي مستوى ما • ولعل كريم دون غيره من أشخاص الرواية حاول أن يعيش بارادة حازمـة ، أزمة العالـم العربي بمنطق خاص ، وفي الذي تجسده مؤسساته القمعية (ادارة الحرية الفردية والجماعية) •

ان الرفض هذا الموقف العابث ، لانه غير أصيل ، هذا الموقف المتشنج ، لانه عاطفي ، الآسر الذي أطر وجـوده كليـا : «أنا أدرك جيدا بأن رفضي عريق ، متمرد أصيل ، لا آبه بشـيء ، لذا كانـت

حياتى مسلسلة متصلة من المتاعب والانتكاسات ، وكنت أخرج دائما بلا موعظة« ص ١٧ ٠ (اذن : الرفض العريق الاصيل = الانتكاسات والمتاعب) هو بالمفهوم ذاته ، الرفض المجانى الذى ينطلق من الذات ليعود اليها مصلوبا ، ان الرفض ليس شعارا يرفع لحظات الهزيمة ، التوتر النفسى ، انه موقف من الذات ، لانه يعنى التجاوز والتخطى٠ التجاوز بحد ذاته علاقة التطور باتجاه ما هو أصيل وعريق ٠ ان كريم قلب المقولة الاولى البسيطة فى محاولة فهمه لواقعه الخاص ذاته ، وهذا هو سر سقوطه الدائم ، كبطل تراجيدى ٠ ان البحث «كاهتمام خاص» ملازم ، فى الوجدان ، فى الشعور ، فى الحياة اليومية ، كمل بقية الصورة العامة للناصرى ٠ صورته التامة : «لقد أردت أن أنتشل روحى النادبة المسحوقة ، التى لاتعرف السلام، لست نبيا ولكننى انسان اعتيادى لطخته الصفوف بشعاراتها وتهريجها ، وقادته الى عهدها ، فهدرت صحتى وشبابى ، واليوم أحاول أن أجد الامان ، هذا كل شىء ، ولكن كيف ؟» ص ٢٢ ٠

السؤال يبقى مطلقا ، كما لو كان الامر يتعلق باختيار وحيد ٠

ان كريم لمواقفه البورجوازية ، تجاهل كل المسالك التى تناسب وضعه الطبقى ، ومحاولة بحثه ، هى التسلق ، الذى أجبره أن يكون لاهثا وراء أحلام زائفة ، هى من صنع المخيلة فى بعض لحظات اشراقها ٠ المسالك كانت : (البحث الدائم / قراءة الكتب / المساهمة فى المظاهرات / شرب الخمر / ارتياد دور الزنا بلا انقطاع) ص ٢٤ ٠

وبالتحديد كانت ، كما كان هو «يخسر الحياة باستمرار» ٠ لماذا ؟ ٠ كريم الناصرى بين التجربة الذاتية ، وبين التناقضات الداخلية فيه ، يدفع بنفسه الى المزيد من الانكماش والانطواء فى الاطار الذى فرضه على نفسه ، أو فرضته عليه الظروف الموضوعية ٠ اذن ، الرغبة + الحرمان + بناء عالم جديد «متوقع» = الاحتراق: «اننى أحترق يا حسون ، تضيق بى ثيابى» ص ٣١ ٠

فى الواقع كريم لم يحد عن الهدف الذى حدده سلفا ، من عالم السجن الاول ، الى عالم السجن الثانى ، فى رحلة واحدة ضد الحرية، ومع ممارسة الهواية القديمة : التسكع على أرصفة الشوارع القديمة. انه يعتقد هذا المصير ، اعتقاده باستحالة تحقيقه . «ليكن كل شىء على عكس ما هو عليه ، فلن أعض يدى ندما ، ولتكن أحلامى غير ممكنة» . ص ٣٤ .

ان لحظات «الشوارع» التى ألحت اليها ، تقابل انكسارا ما فى وجوده الشخصى ، طالما يستحوذ عليه شعور حاد بتوقيع شىء ما : سجن جديد ، انقلاب جديد . عذاب يضعه فى صنف الاموات .

هنا فقط تبرز شخصية حسون كرمز معاكس لكريم . حسون يتساءل : «أنا من أكون ؟ / أنا حسون / أنا ملعون / أنا مسجون / أنا ... أنا أكبر كلب ابن كلب» ص ٣٨ . حسون فى حيرة أيضا يتساءل . ماذا أفعل ؟ أطفالى فى مكان ، وأنا هنا لا أعرف عنهم شيئا ؟ من لهم بعدى ، وهم الذين لم يعتادوا على فراقى يوما واحدا ؟

كل التساؤلات تصدر عن موقف مسؤول ، حازم، حسون الرافض . حسون الاهتمام وأشياء أخرى . وهذا المنطلق ذاته يحدد هويته كشخص يقف فى المواجهة بمعنى ما .

المبدأ كما رأينا عند كريم يأتى مقرونا بالبحث عن الاشياء المتعددة والمفقودة فى آن . وعند حسون هو «الايمان» ايمانا مطلقا بجملة من الافكار العقيدية . الدور الذى تقمصه كريم ينكشف عندما يأتى حسون ليختار بين التسكع والضياع والتشرد ، الطريق الذى أوصله الى نهاية محددة .

المفارقة تبدأ من هنا :

كريم : الرفض + الحيرة + العبث .

حسون : الرفض + الحزم + المواجهة .

لايتوحد أحدهما في الآخر ، رغم ظروف المنطلق الواحد • وبين اختيار النهاية وتجاوز النهاية الى ما بعد ، أى بين اختيار الهدف النسبي ، وبين رفض الهدف ، الواقع الذى فرق بينهما فى السجن والحياة العامة والمستقبل •

كريم : «اننى معجزأ الان ، بلغ كل جزء منى فى قذارة ، وها أنا اليوم مشدود الى هذه التناقضات المتداخلة دون أن تقودنى حكمة صائبة ، أشتهى أن أرتمى بعلاقة دامية مع يسرى ، أن أحبها ، أن أتزوجها ، أن ••• لا أدرى لماذا ••• أوه •••» ص ٣١ •

المواقف : الانفصام ، التناقض المتداخل دون امتلاك رغبة التجاوز ، الحيرة بصفة عامة • علات لواقع ذاتى ، مهزوم ، بل وواقع تحت زحمة التصورات الآنية •

حسون : «الظروف فتحت موهبتى» • ص ٣٩ •

المواقف : الامل ، الشعور العائلى بالوحدة الانقباض ، الهزيمة •

يقول حسون : «لقد شوهنا الشك والفشل يا كريم ، ها نحن الان كالموتى ، الذين ينتظرون دفنهم ، أنظر ، تأمل ، ألا يكسفك وضعنا؟ أهذه العاقبة التى اندفعنا فيها ، وأضعنا من أجلها أحلى سنوات عزنا» •

وكانت «الحقيقة» احدى نتائج «العمل السياسى» الذى تطوع له حسون بمفهوم أخلاقى متخلف • وعندما تكون السياسة هى الحلم ، يصبح الحلم ، الارتماء فى أحضان المجهول دون قيد ولا شرط • وهنا التخلف الذى يغطى مرحلة السجن ومرحلة العمل •

كريم بلا موقف ، يقترب لحظة فلحظة الى مواقع الانكسار الذاتى ـ الوجودى لمجرد أنه يشعر «وكأننى خروف ، موثق الى حبل طويل ، ولن أرد بشىء غير الثغاء» ص ٤٢ • هذه الارادة الشخصية وليس الالزام ، بموقف حرية الاختيار • (الثغاء) نكوص قد يبرر «بسقوط» الارادة ، ولكنه لايقوى على تغيير الموقف ذاته •

فالموقف الفاصل فى حياة كريم يتموضع فى مثلث مكسور الاوضاع :

- الثقافة : الجبن والتخاذل •
- الانتماء : الخيانة والهزيمة •
- الارتداد : الخنوع والاستسلام •

مع لازمة مستمرة ودائمة الاثارة : الاحباط الشعورى وانحسار قدرة الفعل • أى «أى عندما أعطى كريم رأسه للكتب» شرب الجبن والتخاذل ، ويوم «الانتماء» عرف الخيانة والهزيمة «والاجدر بمرتد فاشل مثلى ، أن يخفى وجهه عن الانظار ، لا أن يعرضه كبضاعة كاسدة» ص ٤٢ •

ويكون قد وصل الى الرأى الحاسم فى مجمل علاقات الوجود ، والكينونة ، والبعث ، المتداخلة •

**٣ ـ النقد الذاتى بعد الهزيمة :**

يصل «الانشطار» فى سلوك ومواقف كريم الناصرى الى ذروته بعد أن يختار مرحلة «الاعسار» ممارسة ونظرا • والحاسم فى هذا الانشطار هو مدى ما يمتلكه (البطل) فى كل وقت وباستمرار ، من رغبات (ذاتية أو موضوعية) تجبره على الوقوف لحظات قد تطول وقد تقصر ، ولكنها دالة فى المواجهة ، والتعريف بالمواجهة •

الاشخاص : حسون ـ أسيل عمران ـ محسن خليل ـ عامر وجدى ، لم يستطع أحد منهم ان يقف بين لحظتين : للاختيار والالتزام ، وهم الى جانب دورهم الهامشى أو المكمل لبطولة كريم فضلوا الوقوف أمام سلسلة من التراجعات ، كانت باستمرار تسلم بموقف كريم من كل علاقة ـ وجود ـ ممارسة ـ نظرية • ولما كان «تسليم» البطل يقابل كل شىء ، كانت اختياراتهم تدور فى فلك هذا التسليم • ولم يكن (هو) الا الناطق الرسمى باسم الحصار

الذى يكتنف وجودهم ويسيج سلوكهم ، وبالتالى ، يغلهم عن كل مبادرة أو انطلاق • وعندما وصل كريم الى المواقف الحاسمة ، سحب عليها الرفض ، وكان هو النقد الذاتى الذى اتقدت نفسه على جمراته، برغبة صميم الوضع المعاشى •

ماذا يفرض الوضع المعاشى ؟

السلوك البورجوازى الصغير ، وهو فى زحمة التصورات الذاتية لمشاكل الحياة ــ الماضى ــ الحاضر ، يفقد خصائصه المكونة لذاتيته ليتحول الى موقع «انتهاز» ، باعتبار أن المؤسسات القائمة ، التى ساهم فى تشكيلها لاتضمن له باستمرار وبنفس الوضوح «الممتلكات» الضرورية واللازمة لوجوده بحرية مطلقة •

المثقف العربى من ضمن سيطرة أجهزة بورجوازية الدولة ، يخلص الى موقفين : **موقف كريم** مستسلما أو رافضا ، مجربا ، وفاشلا ، أى ، اما أن يخلق لنفسه من ذات الاجهزة ، كوى التأمل النظرى ، فيتحول الى مهرج على حساب معتقداته الفكرية فى الفعل والممارسة ، واما أن ينسلخ ، فيفتعل موقف «المعارضة» البرلمانية ، لما هو قائم بالذات ، دون أن يمتلك وحدة النقد والنقد الذاتى من أجل التجاوز والتخطى •

**موقف حسون** الذى تحذوه رغبة الخلاص من كل ما هو قائم طمعا فى تحقيق ما يشمله فكره من تصور لعالم آخر من وجهة نظر دينية • ويكون فى الحالة ذاتها قد ارتضى المشاركة ، بطريقة أو بأخرى ، فى تكريس «الهيمنة» الفكرية ، بأسلوب يضمن استمرار و (هيمنة) البيروقراطية العسكرية ، وأشكال النظم الاخرى فى الظرف الآخر •

ان الموقفين معا ، يرتبطان بنوعية الفكر الممتحن فى اختيار الظروف الموضوعية لواقع العالم العربى •

المستوى الثالث ، لايطرحه الربيعي : مستوى المثقف الذي حمل قضية التغيير من «باب» النظر الى «ساحة» التجربة ، بالتزام الى جانب قوى الثورة والتغيير ، في المسيرة الطويلة ، المعقدة ، والشائكة ، ولكنها التي تصل ـ حتما ، الى نقطة النهاية ـ الهدف .

الواقع المعاش ، في نفسية ونوعية سلوك كريم توفرت له أسباب الحفاظ على سكونيته . عندما حاول التحدي ، برغبة صادقة وضع نفسه أمام امتحان عسير ، وكان عليه : التقدم أو التأخر . السجن ـ القمع ، جعل منه من يسلح بما هو كائن على علاته ، فاختار التأخر ، ومن تم اختار الرفض السلبي ، والمبغى والهروب ، والجنس . لهذا أثمرت هزيمته (ومن معه في المشهد) نقدا ذاتيا ، ليس ايجابيا ، ولكنه يكون صورة عن تخاذله وانطوائه وطموحه السياسي الضائع .

**تشكلت «قائمة» الرفض ، من طرح المشكل ، وتصور المشكل :**

فالمبغى في حالات ذاتية آسرة ، قد يجسد الخلاص ، ولكنه في وضع طبقي ، دلالة على تعفن . والكبت ـ أي ما يعادل بهنوات الحرمان ـ قد يجد طريقه الى «تفريغ» تام ، ولكنه يسجل ضمنيا رفض الواقع المكبوت سياسيا : «لنرقص ونسكر ولنمت بعد ذلك ، الى جهنم وبئس المصير (...) وجرى نهر السبق عاريا ، مغرقا كل ما يمر عليه وكانت أصوات الاستغاثة الشبقية تنطلق : هزة أخرى / العن والديك / تساوين جدي وعشيرتي / أموت فداء لساقيك / احترق أهلي» و (أسيل عمران) البعد الثاني للجنس ، تصبح معادلا لنزوات كريم .

قد تتفاوت الاهتمامات الشخصية بين (الابطال) وهم يتحركون بقدرة الربيعي ولكنهم في حصار ، في واقع محدد ، في تجربة ، يقفون موقفا مشتركا من هموم العالم ومؤلفاته . كريم أولا وآخرا ، هو الشاهد عليهم عندما يؤكد : «لن أغير العالم ، ولن أجعل الشمس تطلع من الغرب ، فلماذا اضطهد هكذا ؟ ماذا لو أطلقوا سراحي الان ؟ هل سأحمل السلاح ضدهم ؟ **ان أول عمل أقوم به هو الذهاب الى أقرب حانة لاسكر حتى الموت**» ص ٦١ .

الاضطهاد يساوي فقدان الحرية ، ويبقى المعتقل هو الموت بداية ونهاية ، واذا كان الخلاص المحتمل هو «الوجود العام» فلا شيء فيه يستحق أن يكون ذا دلالة ٠

الفصل الثاني في النقد الذاتي يبدأ باستعراض الاسف والاخطاء والاوزار ، التي يحملها من الماضي ، ويفترض وجودها في الحاضر ـ المستقبل ، ملازمة ، قاهرة ، ليجد الاستعراض محتواه النهائي في الاعلان : «**فلست حاقدا على احد بقدر ما أنا حاقد على اخطائي**» ـ ص ٧٣ ٠ «انني كريم الناصري أعلن براءتي من ٠٠٠٠ وسأكون مخلصا لـ ٠٠٠ ما جدوى أن أستعيد جزئيات هذه المعارك البائدة» ـ ص ٧٥ ٠ وبعدها يكون كريم قد أعد مشروع المصادقة على وضع مرفوض في شكل صك غفران ، يتضمن ، مبدئيا ، معنى الوجود مستقبلا ، في هدوء ، وبحسن نية ، ولا مبالاة ، واعتراف ٠

## ٤ ـ نقطة البداية :

الرحلة كاملة : مستويين ، ١) حياة يومية ، دائمة الاشتعال ، بفعل الشرارات المنبثقة من مجريات الاحداث : حدث ـ نقيض ، حدث ـ نقيض ٠ ٢) والمعتقل ، معاكس الوجود ، معاكس الحرية في وضع ما ٠ ويكون كريم قد استبطن الرحلة بنفس التحديد ، وانتهى الى ما انتهى اليه ، عندما خبر المستويين معا ٠ **في موقف الحياة اليومية** وصل الى «الاستحالة» ، أي استحالة العيش من ضمن أجهزة وأطر وأبنية ، ساهم هو في تشكيلها ، ولكنها تجاوزته ٠ **وفي موقف المعتقل** ، كان الارتداد الى العالم ، الذي تمت صناعته ، الملجأ الوحيد ، لوقاية الذات ، من لهيب الحرمان والمضايقة ٠ وكانت النتائج :

١ ـ «لقد هرقت بكلمات لا طائل من ورائها ، كيف أجبر الكسر في حياتي ، لقد تآمرتم علي ، أسقطتموني ، لماذا تستهدفونني وحدي ؟ كلكم مسؤولين عني» ـ ص ٨٥ ٠

٢ ـ «قررت أن أسافر ، هذا هو الحل الوحيد الذي ينقذني» ص ٨٦ ٠

٣ ـ «كلما تأزمت الامور وتعقدت ، نهرب منها ، بحثا عن بدايات جديدة ، هربت من الناصرية الى بغداد ، وسأهرب من بغداد الى الكويت ، وربما من هناك الى أبي ظبي أو أنقرة ، سأكون مطاردا على الدوام» ـ ص ٨٦ ٠

٤ ـ «أحس الان ببطلان وجودي هنا ، وعمرت باحساس قانع بأنني على استعداد لفعل شيء مقابل اطلاق سراحي» ص ٨٧ ٠

٥ ـ «الغريق لايخاف الطعنات» ٠

٦ ـ «قد أكون أنانيا ، لا أقدم للذين يقتربون مني الا الآلام» ص ٩١ ٠

٧ ـ «بلا مرتكز ولا التزامات ، ينام ويصحو ، يركض ويتشاجر ، يسافر أو يمكث» ـ ص ٩١ ٠

وبقدر ما تسجل هذه النتائج «سقوط» كريم تسجل شهادته على الواقع العراقي في فترة ما (الماضية أو الآتية) ما دامت الرحلة هي هي : من فصل الكبت المطلق ايديولوجيا وسياسيا ، الى فصل الكبت المشروط ايديولوجيا وسياسيا ٠ **تختلف طبيعة النظم في العالم العربي وآفاقها ومرتكزاتها ، ولكنها قبل ذلك تسجل انتصارها على الجماهير صاحبة المصلحة في التغيير الحقيقي ، وتكون هزيمة حزيران ١٩٦٧ هي الدليل مؤقتا ٠**

يبدأ كريم في هذا الواقع ، بداية «البطل» الطامح ، المغير ، وينتهي ، تراجيديا ، على حافة فكره المحدود ، وممارسته القاصرة ، على أمل أن يضيف حسون بعض (الروتوشات) الى الملحمة الفاجعة ، عندما يكون الدين هو الهداية في واقع يرفضه ٠

وباقي الاشخاص ينضمون الى «الكورس» في تأدية لحن (الوشم) البكائي ٠

**عبد القادر الشاوي**

# نخلة في بلاد الجليد

قصة قصيرة بقلم : احمد زيادي

وتستلقى أمامك طريق ملتوية كالافعى ، تارة تتسلـق ظهـر جبل شامخ ، وتارة تنبطح على صدر سهل مسطح نضر ، وأخـرى تسابق نهرا مشجر الضفتين ، وهى فى كل الاحوال مغرية ، غامضة متحدية كغانية في ليلة الزفاف .

وتطوح بك ناحية الشمال ، يد مفتولة العضل ، ساعدها فـى السماء ، ومصدرها تستره المجاهيل ، وقوتها تقذف الارض فى أرجاء الفضاء الفسيحة . وأنت ، أنت الـ ... لاتملك الا أن تجاري القوة الدافعة ، وأن تلقى بنفسك على أرض من الجليـد ، أقوامها ليسـوا كأقوامك ، وسماؤها ليست كسمائك ، ولسانها ليس كلسانـك ، تسير فيها كالابكم ، حديثك اشارة ، وحركتك عبارة ، تقيك مـن أمطارها أقبية ضيقة بليلة ، لاتدفئها الشمس لحظة الا لتختفى لحظات وراء سحب متجهمة ، تتفجر من حين لآخر ، فى القبة الغبسيـة ينابيع تغمر الارض الجليدية . وأنت ، أنت الـ ... لا تملك الا أن تسير وحيدا عاريا من سمائك الحنون ، ومن شمسك الدافئة ، تهزك موجات البرد القارسة ، وتحاول يد الريح العاتية أن تقلعك ، والامطار تغسلك من الخارج ، وفى الداخل تنشب معركة ضارية بين الشمال والجنوب ، وتشترك حواسك الظاهرة والباطنة فى عملية معقدة من المقارنة بين الصحراء والجليد ، وتحس بثقـل فى رأسك ، تهـزه يمنة ويسرة ، تحاول أن تسكت العملية المعقدة ، لكنها تستمر رغما عنك ، فتمضى فى الشارع الطويل ، تقرع افريزه بحذائك الخشن ،

تحاول أن تبدد وحشتك فى مدينة لاتعرف الوحشة · تمر أمام الواجهات والابواب والنوافذ ، ترى الليل مسجى تحت الموائد ، وترى النهار مصبرا فى المصابيح يترامى اليك صدى هدير موجات من موسيقى هستيرية تشنج الاعصاب ، وترى أناسا تفصلك عنهم مئات السنين ، يرقصون بشكل غريب · وأنت ·· أنت الغريب ، لاتملك الا أن تمر أمام كل ذلك ، يداك فى جيبيك وياقة معطفك مرفوعة ، تقى عنقك النحيل من البرد اللاسع ، ورأسك الصغير ، كفاكهة مهترئة غير مرغوب فيها ، يتدلى بين عظمتى كتفيك · وفى داخلك جمرات متقدة من الرغبة فى أن تكون غصنا من أغصان هذه الشجرة الغناء التى أينعتها أرض الجليد ، ولكن هل تكتب لك الحياة ، لو أقلمت من نختلك ؟

وتمر أمامك حواء ، تتساءل : هل تملك حواء أن تعيد آدم الى الجنة ؟! تغرز فيها عينيك ، تحس المرأة بحرارة خط الاستواء تلفح جليدها ، تبرعم فى غصنها النضر براعم أنوثة مغرية ، تتباطؤ فى مشيتها تتلكأ ، تتظاهر بالتفرج على بعض المعروضات فى الواجهات الزجاجية المضاءة · تفتقدك من حين لآخر بطرف خفي ، تستبطئك ، تمضى ، ترتمى عيناك فى أعقابها ، تتشبثان بساقيها المكتنزتين يشب فى عروقك ألف رجل ، تتكدس فى داخلك قرون الكبت والحرمان ، يرتجف عودك ، جسمك قوس ركبت فيه ملايين النبال ، من يطلق الوتر حتى يستريح القوس من التوتر ؟!

وتسحب عينيك منهزمتين من ساحة المعركة ، تمضى بنبالك وقوسك ووترك المشدود ، وماذا تملك أن تفعل أكثر من ذلك ؟! يداك منغرستان فى قاعى جيبيك ، وياقتك المرفوعة الى أعلى ، تستر عنقك الدقيق ، وبين ظاهرك وباطنك جدار من حديد ، وبين الصحراء والجليد جبال من الامواج الرهيبة ، وسهول من البحار المترامية الاطراف ، والنخيل يكاد يموت جفافا ، الرمال عطشى ، لو تستطيع

تشرب البحر فى جرعة واحدة ، من ينقل الصحراء الى الجليد ؟ متى يعود المهدى ؟ هذا زمن نضبت فيه السماء ، والارض عطشى للانبياء ·

ويمر أمامك رجل ، يلفت نظرك بحركاته الغريبة ، تنظر اليه ، يبتسم فى وجهك ، يدعوك لـ ··· حركته المقيتة تثير فى نفسك الغثيان ، تجاعيده ، شيبه ، قامته الفارهة ، منظره ··، كل ذلك يذوب فى عينيك ، يتبخر · الشارع خال ، يعيد بأمانة صدى حذائك وهو يقرع بلاط الشارع · وزوجك الوديعة ملفوفة فى ملاءتها السوداء ، تقبع عند الباب ، تتكئ على الجدار الابرص ، وعيونها الجميلة تذرف الدمع السخين فى سكون · ومن حين لآخر تلمح على ضوء الشمعة الخافت لألاءا خاطفا ، يمر بالوجنتين الشاحبتين ، ويتحدر على جانبى ثغرها المرتجف الشفتين ، وتسمع تنهيدة تطفىء شعلة الشمس ، تهز ظلمة الليل · وأنت ، أنت الـ ··· لا تملك الا أن ترى كل ذلك ، وأن تسمع كل ذلك ·· وتنتظر الفجر الازرق ، لتنشر شراعك على سطحه المائج ، فتنفخ فيه الريح ، وترميك فى بلاد الجليد ، وزوجك تتعلق بك ، لبلابة تتشبث بالجدار لترفع رأسها الى أعلى ، لكن زوبعة جنوبية تقلع الجدار ، وفى طرفة عين تطوح بك نحو الشمال ، فتسقط اللبلابة ، تتعفر بالتراب المتطاير من القاعدة المنهدة ، وتسمع فى هدأة الليل الصامتة ، صوتها العميق، كأنه يأتيك من قرار بئر يوسف :

ـ أخشى عليك أوروبا ·

وتعيد عليك للمرة المئة :

ـ أفضل أن أموت جوعا بين يديك ، على أن أفقدك ولو لحظة، على أمل الغنى ·

وأنت ، أنت الـ ··· لاتملك الا أن تسمع كلماتها الحزينة ، وأن تنحت لها من قلبك تمثالا حيا ، وأن تتمسك بالشراع ، تمسك الاعمى بعكازه ، والريح تنفخ فيه بقوة ، والموج يتلاطم عند جنباته ،

والمسافة تطوى ، والبعد يزداد ، والبحر فى عينيك وقلبك يتسع ، يتسع ، ولا تجد ما تملأ به وقتك وقلبك وجوفك الا كلمة تلوكها ، وتلوكها كالعلك :

ــ كل شيء يهون من أجل اللقمة ٠

وترفع يدك تلوح بها لنقطة سوداء لم تذب فى البحر الاجاج ، غابت عنك المدينة ، وما تزال النقطة السوداء تبدو لعينيك واضحة ، ووجه زوجك الذابل يمزق سوادها بلونه الصبوح المشوب بصفرة ورسية ، وقلت لها فى ذلك الصباح الندى :

ــ أحبك ، أحبك الى الابد يا قطعة من حنان ٠

ويشق المركب صفحة الماء ، وتنهال سياط الريح على الشراع المنبعج ، فيهرع ناحية الشمال محاولا الافلات ٠ وتلوح لعينيك البليلتين عمارات تداعب قممها السحب ٠ لم يبق اذن بينك وبين الخبز الا ذراع ٠ يقولون ان قاصد هذه البلاد لايخيب ، انها مسقط رأس الحضارة المعاصرة ، سبحان خالق الارزاق وموزعها : نخلة تطوى المسافات لتمتص نسغها فى بلاد الجليد ٠

وتنعطف مع الشارع الايمن ، تمضى فى ايقاعك الرتيب ، ترسل من حين لآخر بصرك الكليل الى صناديق الازبال والمهملات ٠ فجأة يبدو لعينيك حذاء نسوى ، تمد اليه يدك : «لا يزال ، والله ، صالحا للاستعمال» ٠

ــ البسى يا خديجة ٠

ــ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ــ ادخلى رجلك اليمنى أولا ، هكذا ، شدى الحزام ٠٠ تماما ٠

ــ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ــ استقيمى فى وقفتك ، ساقك مرتاح ؟!

ــ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ـ العفو ، آه لو تدركي قصة هذا الحذاء ·

ـ « « « « «

ـ لا أبدا · لم أكن أقتر على نفسي ·

ـ « « « « «

ـ كيف وفرت ثمنه ؟!

ـ « « « « «

ـ المال يا حبيبتي في أوروبا كالحطب ، لكن حاطبه لابد أن يحترق قبل أن يجمعه ·

غدا ، عندما ينبهر النهار ، تزور عليا في شقته ، تودع الهدية الشارع خال ، تخفي الحذاء تحت العطاف ، تدفن رأسك بين عظمتي كتفيك ، تمضي وايقاع حذائك الخشن يبدد وحشتك القاتلة ، وطيف بسمة باهتة عابرة يرفرف على شفتيك المتجمدتين ·

غدا ، عندما ينبهر النهار، تزور عليا في شقته ، تودع الهدية حقيبتك المتروكة عنده ، تستبدل ثيابك ··· أما الليلة ، فالى مأواك المجاني تحت الخميلة في تلك الحديقة الغارقة في الصمت والظلام ·

ويمضي الخريف ، ويأتي الشتاء بزمهريره المجمد ، وتنهال سياط الريح على الاشجار البئيسة ، فتهجر الطيور أعشاشها التبنية، وتبني لها في أعالي الزوايا الحائطية أوكارا طينية ، تحتجب فيها طيلة الشتاء ، وأنت ، خلال ذلك كله ، مقطوع الصلة بمن وراء البحار ، اللهم ما كان من تلك الكلمات التي تصلك من حين لآخر ركيكة من أسرتك أو مقتضبة من بعض أصدقائك ، فتلهب الحماسة في نفسك ، وتستعيد ذكرياتك قبل الهجرة ، فتأخذ من بطنك لتطعم جيبك ، فحياة النخلة في بلاد الجليد حياة قصيرة محدودة ·

ويمضي فصل الجليد ليأتي الربيع ، فتذوب الثلوج ، وتنتشي الحياة ، وتستعد الطيور للعودة الى أوكارها المهجورة • وقبل أن تعود أنت ، تصلك رسالة ، تنقل اليك صورة زوجك ملفوفة في ملاءتها السوداء غارقة في سرير أحد المستشفيات ، يهز المخاض جذعها الاعجف ، لكنها لاتلد ، فلا تملك ، وأنت ، أنت الـ ••• الا أن تنزع النخلة من أرض الجليد ، لترمي بها الى صحرائها المحرقة ، وقد وشح أعلاها بأغداق حمراء صغيرة ، كأنها عقود من مرجان ، ما لبثت الهزة العنيفة أن نثرتها •

وتسرع الخطى الى السرير ، في يديك الحذاء الاسود ، لتجد المخاض قد انتهى ، والعاصفة قد سكنت ، بعد أن جرفت رياحها الهوجاء النخلة وأغداقها ، فلا تملك وأنت أنت ألـ ••• الا أن تعيد الحذاء الى سلة المهملات ، والا أن تردد مع المسيح الحزين :

«بماذا نفيد ، اذا ربحنا العالم كله ، وخسرنا أنفسنا» •

---

## تنبيـــه

**ترجو المجلة من المؤلفين والناشرين والمكتبات أن يوافوها بالجديد من انتاجهم ، لتعمل على الاعلان عنه والتعريف به ، كما ستتناول بعض الكتب الهامة بالدراسة والتحليل •**

مبارك الدريبي

# تذكار الجندي القديم

قصة قصيرة :

كانت رموش المساء المتعب ، تتناوم ، وهي تطلب دفئا من برد هذا الربيع القارس • تحركت الحافلة تحت يد السائق ذي الاذنين الطويلتين • استوت في اهتزازها ثم انسابت ، تمزق الجسم المتلاطم للنهر البشري • المدينة مزينة كعــروس • عيد العرش فــي بعض الرؤوس • كان في صدر المدينة فرح ودموع • الاعلام ترفرف وتسب الناس على غباوتهم • في السماء كانت الغباوة ، وفي الارض وفــي الصدور كذلك ، كانت الغباوة متعفنــة • أحلام التخفف من عــبء العائلة في صدرك ترقص • كنت فرحا يا بارودي •

كانت تزين شفتيك ابتسامة رقيقة كنسيمة الاصيل• تحركت نسيمات النهر الكبير • ازدحم النهر البشري أمام الواجهات وأماكن الرقص وتحت أقواس النصر الذي لايأتي • بالحقيبــة الصغيــرة ، «بيجامة» وفرشة أسنان وعلبة معجون «سينيال» ومشط لشعــرك الطويل • بالجيب ورقة مالية كبيرة ، وبالصدر شعور التخفــف ، رقيق يترنح ويكاد يطير بك الى السماء • استقامت هامتك • نشط خيالك • ابتســم فمك وصاح صوتك بشارع محمد الخامس : «المدد•• المدد ، يابواحلة يا أسياد ••»

كانت السماء عارية من السحب ، كامرأة جميلة ، تنتظر على فراش النجوم الساهرة في السماء • ذات البنطلون الاسود ، تثاءبت• قالت من وراء قناعها العسكري :

ـ سأسافر الى الهند ..

ـ حسنا تفعلين .

ـ أأنت جاد ؟

ـ نعم .

بمؤخرة الحافلة ، كانت جماعة «الغربان» توقع على الدف فى رتابة مخدرة ، أغنية الارض والجسد . تنفس صدرك . ابتسمت ذات البنطلون الاسود لصورتها في زجاج النافذة . أسرعت الطريق بأشجارها الى الوراء . أسرعت دقات الدف بمؤخرة الحافلة . انتظمت الاصوات . شاركتها أكف أولاد الدوار الذين احتلوا وسط الحافلة . بمقدمة الحافلة ، كان أولاد المدينة المتأنقون لايستمعون . تداخلت الاصوات دافئة ، خشنة ، لتوقع لحن الارض والانسان والموت . تناثرت نجوم متعبة وصفراء على أزرار السماء العارية . بصدرك شهقات الشوق محرقة ودافئة . ابتسمت لك ذات الشعر الطويل ، السمراء . أطفأ السائق المصابيح الداخلية . انعكست رؤوس الركاب قاتمة وسوداء . السائق كعمود فى مواجهة الطريق . مسحت شعرها الغلامى ذات البنطلون الاسود . كانت مخدرة بعظمة مفتعلة . كانت تكره الرجال ، كأنها تحب أباها سرا . كان أخوها ، بالقرب منك ، على الكرسى الطويل ، بسيطا وطيبا . كانت هى غاضبة من شىء فى صدرها ، حقودة ومتعالية . انتفض صوتك بصدرك ثم قفز الى الخارج قويا فى جو الحافلة : «المجد لكم يا بواحلة يا أسياد» . ابتسمت السمراء . غضبت ذات البنطلون الاسود . قفز سلطان الغربان ، وصاح : «العظمة لكم يا بواحلة يا أسياد» . انتفضت ضحكات الغربان ، كقطرات الماء على صدر طفل صغير . السماء حزينة بسيدى سليمان . أقواس النصر والغباوة بالادمغة والصدور . العيون المريضة ، بها شهوة قاتلة للمرأة . توقفت الحافلة . نفض السائق العجوز يديه . الاجسام المغبرة تتدافع

بشوارع البلدة الصغيرة · بمقهى شعبى صغير ، أكلتم الشـــواء · كانت عينك على الغلام الصغير الذى يطحن قطع اللحم · كان بسيطا ومسرورا · وشعرت بعظمة الانسان فى العمل · لقد أنهيت عملك ، وبقي شيء عالقا بقلبك · سقطت قطـرات الشواء على ثـوب ذات الابتسامة الهادئة · قطبت وجهها العسكرى ، ذات البنطلون الاسود· ضحك أخوها · أكلتم بشهية ذئب جائـع · شربتم شايا ساخنـا ومنعنعا · شربت ، أنت ، يا بارودى نصف كوب بارد · تجرعـت بيرة شهية · كان بصدرك الصيف · كان الفصل ، فى الخـارج ، ربيعا قارسا · بمقهى المعمرين ، امتطت السمراء الكرسى الصغير ، وتأملت من وراء قناعها الحالم ، صورتك ·

ـ اسمى : أميمة · أزن ٤٨ كيلو غراما · سمراء كما تـري · احب الكأس وأنتظر أحدا أن يتقدم لخطبتى ·

ـ تشرفنا يا أميمتى · اسمى بارودى · أزن ٦٨ كيلو غراما· أسمر كما ترين · أحب الجنس والكأس والسباحة والمصارعة ، ولا أنتظر من احداكن أن تتقدم لخطبتى ·

ضحكتما · صافحتها · كانت يدها دافئة كصدر حمامـة · ضحكتما من جديد · شربتما «بيرتين» ثم «بيرتين» · دخنت أنت · لم تدخن هى · كانت السماء الغاضبة رمادية اللـون بفعل الغبـار وأشعة فوانيس شارع محمد الخامس الشاحبة · كان باب مقهـى المعمرين واسعا · وشعرت بأن صدرك يتسع ليقبل العالم · شهق صوتك كقصف الرعد قويا ، يصيح : «يا أسيـاد ، يا بواحلـة ·· المدد» · ضحكتما · وقرأت فى عينيها شحـوب أيام من الانتظـار وعذاب عائلتها لها · كانت رومانسية حالمة وسمراء رقيقة العـود ، قوية العضلات · كانت السماء غاضبة · الحافلة تنتظر كحشـرة مريضة · جذبتها من يدها واتجهتما الى باب محكمة السدد · كانت السماء غاضبة ، وسحب غبار ما كانت عالقة برموش عيون الانجـم الصغيرة · كانت ذات البنطلون الاسود والوجه العسكرى ، تبحث

عنك ، برفقة أخيها البسيط ٠ اختبأتما ٠ ولم يكن ذلك خوفا منها بل تسترا من عينيها الكريهتين ٠

ـ هل ذات البنطلون الاسود ، أختك ؟

ـ هل صاحب الشارب الطويل ، خطيبك ؟

ضحكتما ٠ كان رأسها على كتفك ، وابتسامتها من بين شفتيها الشهيتين ، كانت ، دافئة تحت سماء أولاد حمادى الرمادية الوجه والغاضبة الصدر ٠

ـ انه صديق أخي ٠٠

ـ انها صديقة أمي ، لذا أرسلتها معي لحراستي ٠٠

ـ لحراستك ؟

ـ نعم ٠ من السمراوات ؟٠

ضحكتما ٠ وضحك صدرك فرحا وتخففا ٠ على وجهك مسحة شباب باقية ترنو من تحت الجلد قبل أن يهجم الهرم بسيفه ٠ كانت هذه فرصتك ٠ هذه كأسك قدمتها لك يد القدر يا من لايؤمن بالقدر ، فاشربها بشوق من يريد أن يستريح نهائيا ٠

وتحركت الحافلة ٠ تحركت الثرثرة وراء السائق المنتصب كعمود أمام الطريق ٠ استقام الغناء على أصوات الغربان الذين صعدوا الى الحافلة يترنحون من السكر ٠ صفقت الايدى ، تصافحت صفقت بقوة ٠ أطفأ السائق المصابيح الداخلية ٠ تراشق الظلام بأشباح ورؤوس الركاب الساهمين والحالمين والغاضبين ، في هذا الليل المقرور والمريض ٠ وعادت الاصوات تتداخل في وقعها على الدف كيد ضارب طبل زنجي يطارد الاشباح وسط الادغال ٠ ارتمى صوت دافيء وسط أصوات جماعة الغربان ، وردد مقطع أغنية شعبية :

وانا .. وانا .. وانا وانا .. راح الليل وغربت نجومه
وانا .. وانا .. وانا وانا .. طال عذابى مع الخطابى
يا الغادى قل للجاى .. راح الليل وغربت نجومه
وريدة زوينة ، حارقة مدينة .. راح الليل وغربت نجومه
خالى فى الكى، عند من نمشى .. راح الليل وغربت نجومه
دايم الله ، وانا مسافر .. طال الليل وطال عذابى ..

سارت الحافلة تأكل من الارض . وعادت الطريق ملفعة بظلامها وحزنها . كانت غاضبة ذات البنطلون الاسود . لاتشعر بها . انها لاتحبك . اعدمها من وجودك . كن قاسيا . تمدد أخوها البسيط وتثاءبت . صاحت هى : «رائحتك كريهة يا أقرع» . غضب أخوها ولم يقل شيئا . كانت أقواس النصر تتأمل سيقانها على ضوء المصابيح الكهربائية فى بعض القرى . مسحت السماء جسدها اللين وأغمضت عينيها لتحلم ، هى الاخرى ، بصورة الحبيب . كانت ذات البنطلون غاضبة . كان أخوها نائما . فتح فمه واسعا وألقى ذراعيه بعيدا . كانت السمراء تنظر اليك من وراء قفا ذى الشارب الطويل . كان رفيقها طويل الشارب ، طويل الجسم ، طويل اليدين . ابتسمتما . فتح ذراعيه ذو الشارب الطويل وغنى منتظما مع جماعة الغربان . تمهلت الحافلة . نزل السائق وتبول على ساق شجرة . وضحكت أصوات . كان السائق ملتصقا بالشجرة كعمود ميت . تغادر السفينة الميناء . قلبك يحنو على السفينة «ازمرلدا» . حملتها بأكياس الفول والعدس ، لتأكل بهائم انجلترا الجائعة ، ولتكنز أنت من وراء ذلك تعبا ، وتكنز الملكة اليزابيت ـ حبيبتك ـ ليرات من ذهب . حملت السفينة بطلبات الزبون . انتظرت أن تغادر السفينة الرصيف . لكن البحر كان غاضبا والسماء باكية . نام بعض الركاب . نام ، كذلك ، على صدرك تذكار صديقك الجندى القديم الذى حارب بسهول الكامبودج . كان تذكاره يحمل صورة الملكة اليزابيت ، معلقا فى سلسلة متواضعة وبيضاء ، تعانق عنقك .

أصبحت تحبها على الفراش ، كنت تناديها ليلا ، فتتخطى الملكة بجلالها ، البحار والسهول والجبال • كانت تأتيك ، فرحة كطفلة صغيرة تتحرر من عين الآباء لتلعب مع صديقها العصفور • هل غادرت السفينة المرفأ ؟ • تمددت أكثر على مقعدها ذات البنطلون الاسود •

ـ سئمت هذا البلد وأهله •

ـ أحب هذه الارض وأهلها البسطاء •

ـ يخيل الى بأنى من أصل آرى •

ـ ربما ••

ولعنتها في سرك وصفعتها بنظراتك • كان وجهها بشعا وقبيحا • صفعت نفسك بغضبك • هل غادرت السفينة المرفأ ؟ ضحك القمر معجبا بنفسه كشاب يافع يحب لاول مرة • ترقرقت أشعة القمر الجميل على الحافلة المتعبة المنحدرة بسهول الريف الوعرة • كانت الجبال ملفعة بالظلام • كانت السماء قد مزقت أثوابها ونشطت على ثوبها الاسود الداكن ، أنجم زهر ورقيقة كذلك، تنادى سمار الليل والمتعبين من المسافرين • السائق منتصب كعمود فى وجه الطريق • طربوشه على رأسه ، كأسوار قلعة تركية فى مواجهة العدو • والاجنحة الرقيقة ، ترفرف خفيفة فى صدرك الواسع • تحررت شيئا ما • مالت الطريق وتصاعد دخان السجائر كثيفا فى جو الحافلة • اشتد التصفيق وزغاريد الفتيات • ضحكات• قام الشيخ الكبير يلوى خصره وضحكته ، كانت ، توقع صفعات فى جو الحافلة • كان الليل طويلا • دوامة العجلات واهتزازها على شقوق الطريق والمقاعد الخشنة والتعب وأجنحة الفرحة وشوق المجهول ، يوقع فى خلايا الفؤاد ارتعاشات محرقة • دخنت سيجارتك الدافئة • سافر الدخان الى سقف الحافلة • سافرت السفينة «ازمرلدا» • تذكرت هذا الاسم ، عندما قرأت لاول مرة • لقد أحببت هذه البطلة ـ أحدب نوتردام ـ قلب باريس الرمادية فى ليالى

الخريف النائم على حى سان جيرمان ومونبرنـاس • كان تذكـار صديقك الذى حارب فى سهول الكامبودج ، يرتعـش على صـدرك كعصفور جريح • وكانت صورة اليزابيت تبتسم بالدماغ وتعصـر قلبك نفحات عطرها القاتل • كان البحر هائما بشاطىء الشليحات ، عندما مرت «ازمرلدا» تحمل الاكل للبهائم ، وتحمل كذلك أشـواق قلبك الخشن الذى لم يتنسم العطر من أيام خلت ، ميتة ، كأوراق الخريف •

كان البرد قارسا بفاس ، قرب المحطـة القديمـة • وكانـت الشوارع مضاءة بفوانيس ساهرة فى تعب تحت سماء هذه المدينـة القديمة • تبول مسافرون • شرب آخـرون • تشاجـر بعضهـم • لاكت السنة لعنات • ضحكت أصوات • قالت السمراء :

ــ ما هذا الحزن ؟•

ــ شىء فى سماء هذه البلدة يأخذنى ••

تبول بعض المسافرين • تشاجر آخرون • خرج الغربان من مقهى فرنسا • كانوا يشربون من زجاجات الخمر جرعات دافئـة • ضحك الغربان • سقاك أحدهم جرعة • ضحك الغربـان • صـاح رئيسهم : «المدد يا براحلة ، يا أسياد» •

سارت بجانبك السمراء • كانت حالمة وحزينة بعض الشىء •

ــ وشىء فى هذه الرحلة يأخذنى •

ــ ربما هو المجهـول ؟

ــ أو فتنة التحرر من شىء ما ؟

ــ ممكـن •

كانت نظراتها ساهمـة • مسحت خـدى بيدهـا • دخنـت سيجارتك • كانت يدها ناعمة كنسمة الفجر • كانت «ازمرلدا» فى صدرى ، تأكل من البحر • وكانت الاجنحـة الرقيقة ترفرف علـى

راسي • تبول مسافرون على الطـوار • صاحت الحافلة • ركـب الغربان • تأخر آخرون • صاح السائق • وتحركت في هدوء وسط ضباب ضاحية فاس • كان السائق متعبا وأجسام بعض المسافرين ، كانت ، نشيطة • صعدت الطريق ، وكانت وعـرة • انتظم قـرع الدف ، وانتظم كذلك الغناء الدافيء تحت سماء الريـف الجميلـة • كانت الاصوات تردد أغنية : «الموت والفناء» • وكان القمر الجميل يغسل الطريق فتظهر مغلفة بالظلمـة والضبـاب • كانت الجبـال والاكمات ساهرة تغتسل بأشعة القمر • كانت الارض فارغة ، الا من أشجار الكاليبتوس وبعض القرى المعشعشة ، في الافق ، كالصقور • كان تذكار صديقك الجندى الاعور الذى حارب في ديان بيان فـو ، يحوم حول عنقك • توقفت الحافلة عند منحدر خطير • كانت هناك قنطرة ذات اعوجاج خطير • الاضواء كثيرة • نزل أحد الغربـان ، تبول على جذع شجرة صغيرة • تبول السائق والتصـق بشجـرة كبيرة ، فأصبح يكون عمودا ميتا • غابت الاضواء الكاشفة • امتدت الطريق الوعرة وسط الريف الساكن الرهيب والمغلف بالذكريات • عاد قرع الدف يوقع أغنية : «الارض والرجـال» • استيقظ أبنـاء المدينة وشاركوا الغربان في غنائهم • كان البرد قارسا في الخارج • وكانت «ازمرلدا» تتخطى البحار لتحمل الاكل لبهائم أوروبا • انك تطعم الجائع وتموت جوعا • وتخطت اليزابيت باب قصرها الضبابي، هربت من زوجها ثم أتت اليك لتحنو عليك • كانت مثلجة الاعضاء ، ففتحت قميصك وأوسدتها صدرك العريض • ابتسمت اليزابيـت واختفت وسط صورتها في سلسلة التذكار الحربي • نامت وهـي تتنهد مسرورة بهذا الصدر الافريقي • قالت اليزابيت من وراء غلاف صورتها :

ـ سأدافع عن افريقيا ، غدا ، بمجلس اللوردات •

كانت شفتاك تدخن • وقال صوتك الدافيء المتكاسل :

ـ مجلس اللوردات ، ليذهب الى الجحيم •

ـ تأوهت الارستقراطية على صدرك ٠

ـ أوه ه وماذا تريد ؟

دخنت شفتاك نارا من سيجارتك ٠ نامت صديقتك على صدرك٠ انتظم قرع الدف ٠ غنت الاصوات في شوق ، أنشودة : «القمر على وجه النهر» ٠ رقصت اليزابيت خلف نافذة صورتها الدافئة على صدرك ٠ غضب زوجها بالقصر النائم تحت الضباب ٠ جلد زوجها ستين حارسا ٠ سافرت «ازمرلدا» بحمولتها ، كأرملة احتطبت لابنائها ساعة غروب قارس ٠ المرأة لاتتذوق المنطق ، لذا رقصت صديقتك اليزابيت ٠ المرأة تطل على العالم عبر نافذة ، زجاجها ، صور متحركة ٠ لغة المرأة صورة متحركة ٠ لغة العالم سلب ونهب ٠ لغة أجدادك سلب وقافية ٠ ولغة شعبك نحيب وبكاء وورقة التشغيل الصفراء النحيلة ٠ تململت ذات الوجه العسكرى ٠ صاح أولاد المدينة وغنوا : «جادك الغيث» ٠ نهق صوت آخر : «فى قلبى جرح قديم» ٠ وعلى صدرك الدافىء الواسع ، نامت اليزابيت وهى تتوسد ذراعها٠ كانت عاشقة ٠ كان أجدادها عشاق هذه الارض العذراء ٠ مالت الطريق وانقشع الضباب قليلا ، فتراقصت أشعة القمر حنونة وضاحكة على وجه السمراء الشهية ٠ كان رأس صديقها ذى الشارب الطويل ، مقوسا الى الامام ٠ كانت هى تتوسد ذراعها ٠ كانت بريئة كطفلة صغيرة ٠ الاخرى كانت على صدرك ، من وراء غلاف صورتها الدافئة ، تتوسد ذراعها وتنام في براءة تامة ٠ كان زوجها غاضبا وهو يتوعد نهر التايمز شرا ٠ كانت المملكة كلها تبحث عنها٠ كانت هى نائمة على صدرك ٠ كان البحر غاضبا ٠ ماتت ازمرلدا ٠ أخذها البحر بقوة ، حملها الى الصخور وصفعها بقوة ٠ فغرقت وماتت في سكينة الفجر ٠ وحيدة كانت ٠ ماتت وحيدة ٠ غامت سماء الريف ٠ غام خيالك ، فتفكيرك وعدت غاضبا ٠ استيقظت ذات الوجه العسكرى ٠ تثاءبت ٠

ـ احنا فين ؟

ـ فى أرض الله ٠

ـ لكــن ؟

ـ ماذا تريدين ؟

ـ أوه ٠ أنت قاسى ٠

ـ وأنت مريضة ٠

ـ ممكــن ٠

ـ ومعقدة كذلك ٠

ـ أنت قاسى ٠

٠٠ استيقظت السمراء الشهية ٠ كانت كقطعة شمع أصفـر لينة وطيعة كموجة مد رقيق ٠ كان شعرها الفلامى فاحما وقويـا ٠ فى سماء المدينة كان المطر يغزل عباءة ثقيلة ٠

ـ لقد تأخرت (قالت بصوت امرأة متكاسلة) ٠

ومدت ذراعيها نحوك ، فضمتك اليها بقوة ٠ ذات الجليد من جديد ، بعدما تعبتما ٠ كان الوقت ضيقا ٠ كانت هى كالبركان ٠

ـ أوه ٠ انك رائع ٠

ابتسمت أنت ٠ كان الشاطىء واسعا ومخدرا ٠ كانت سيارة الاجرة تهرب بكما من مليلية الى الناضور ٠ ولم تكن أنت تريد ذلك٠ كان الميناء كبيرا ٠ المراكب وقوارب الصيد ، كانت تتراقص علـى المد ٠ شربتما بيرة «سان ميغال» ٠ ضحكتمـا ٠ وبمحلات سـان فيرناندو ، أهديتها زجاجة عطر كبيرة وأصبع أحمر الشفاه ٠ كانت السماء زرقاء كأنها فى يوم مولدها ٠ بصدرك أن يطول هذا اليوم وأن

تستنشق هذا النسيم المنعش البارد ، وأن تنظر الى عينيها الزرقاوين، كهذا البحر السادر الهادىء • شربتما بيرة «سان ميغال» • دخنت أنت سيجارة غويا الكبيرة • تعطرت هي على رصيف الميناء وسكبت نصف الزجاجة من عطرها في البحر • ضحكت •

ـ لم سكبت العطر فى البحر ؟

ـ يكفى ما أخذته •

سكبت العطر على شعرك الطويل وصدرك • كانت هي حالمة وبريئة كطفلة صغيرة • كنت أنت دافئا ومتفهما لاشيائها الصغيرة • أمام كاتدرائية «سانت ماري» قبلتها • كانت دافئة وشهية كتفاحة مثلجة فى ليلة صيف • كان تمثال «الكبليروس» ينظر اليكما فى عظمة وحنان كبير •

ـ اشرب يا عزيزى ••

ـ نعم يا عزيزتى ••

وعاد المطر يغلف الدور والفيلات الانيقة بشارع اشبيلية • كانت كالبركان • وأصبح ثقل البيت قاسيا على صدرك • غضبت ذات الوجه العسكرى وبكت على صدر أبيها الذى تعبده • كان أخوها لايغادر البار ، بحى سان فيرناندو • كانت أجراس كاتدرائية «سانت مارى» تقرع فرحة عرس بسيط بمليلية • كانت السماء في مدينتك حزينة وسوداء • كان المطر يغلف الحي وهو ينتحب بدموع قارسة • قضيت البارحة ، ببيتك البسيط بشارع غرناطة ، ليلة بيضاء كوجه الحارس عنبر • بكت الاولى وكسرت الصحون ، ثم ضربت الكلب البرىء الذى شكى همه فى نباح متقطع وطويل • بكت الثانية على صدر أبيها • ابتسم أخوها بمقهى «سان فيرناندو» وكسر زجاج الواجهة • كسر زجاج البار وقبل شرطة اسبانيا • كان يصيح كخنزير صغير • كان يقبل الشرطة • كانت ذات الوجه العسكرى

تبكي • قال لها بصوت ميت : «أأنا أخوك ؟ •• اذن •• اشربي معي كأس ريكار يا حبيبتي ؟» • صاحت • خافت من كلمة «حبيبتي» • بكت المعقدة وتوسلت الى الشرطة • قبل الاقرع الشرطة • صاح الاقرع : «أنا أقبل الشرطة لانهم بنات» • بمقهى «سان فيرنانـدو» أسرت اذاعة ، في أذنك ، خبر موت «ازمرلدا» • تألمت •

ــ تقدم خطيبان الى أمي ••

ــ اذهبي الى الجحيم ••

ــ أريدك ، أنت ••

ــ اذهبي الى الجحيم ••

صفعة قوية ، كانت ، كامضاء يعدم نهاية عقد قصير • بكت هي تحت شجرة التين القصيرة • كان المطر يتساقط قويا • كانت دموعها حارة • بكت تحت شجرة التين • كان الغربان بمقهى «سيكانت» يتصايحون ويقرعون أحجار الدومينو على الطاولة الخشبية • اشتد صراخهم • لوحوا بأيديهم الى السماء • صاحوا جماعة : «المجد لكم يا بواحلة يا أسياد» • كان تذكار صديقك الذي حارب في سهول الكامبودج ، يضمك اليه • كانت اليزابيت نائمة خلف زجاج صورتها على صدرك الواسع • في قلبك حزن • في الارض غباوة • في السماء حزن وغباوة • في الادمغة ، كانت ، الغباوة كثيفة كأشجار الغاب الاسود •

القنيطرة : مبارك الدريبي

محمد الذهبي

# المنزل الجديد

## قصة قصيرة

توقفت السيارة أمام المنزل الجديد ، وهبط منها صاحب المنزل الجديد ، الشاب الوسيم ، ثم أسرع يفتح الباب من الجهة الاخرى ، باحترام وأدب ، فخرجت خطيبته الاجنبية الجميلة ، مشرقة الوجه ، بادية السعادة ، فقد كان يريد أن يريها المنزل ، يريها العش الذي تحن اليه كل امرأة .

.. وما كادت تهبط من السيارة ، وتلقى نظرة على المنـــزل ، حيث شهقت بدلال : كان مفاجأة حقا ، لم تكن تتصوره بهذا البهاء ، وأسرعت الى حبيبها تشكره ، تمسك بيده بحرارة ، وتقول بلغتهـا الاجنبية التي تسحره : (رائع .. بديع .. أوه ، كم أنت لطيف يا حبيبي) . وابتسم لها ابتسامة صفراء مجاملة .. بينما عقله يسرح في واد آخر .. ولاحظت شروده ، ولكنها أخفت امتعاضها ، وطفقت تتودد اليه ، خلال تفقدهما للمنزل ، وتقبله بخبرة وبراعة ، حتــى تفككت قواه ، وانهارت عزيمته ، فاتكأ على النافذة ، يشير الى أحد البيوت (الشعبية) في المنتأى ، ويحكي قصة شروده .. لقد ولد في بيت خرب حقير .

وكانت أمه دائمة التأفف من ذلك المنزل العتيق الذي كانـوا يسكنونه في احدى الحارات الضيقة ، المليئة بالاوساخ الكريهـة ، والحشرات الواخزة .

ولكن تأففها وضيقها ، يدفع بها دائما الى التشاجر مع أبيـه .

وتجعل الحياة في المنزل الخرب جحيما لايطاق · كان يستمع كل ليلة تشكيات أمه ونواحها من بختها المائل ، وحظها العاثر ، الذى أوقعها فى زوج بخيل ، يقتر عليها ، ويكتنز الاموال ، كأنما سيحملها معه الى القبر ·

فيتألم لها ، ويتمنى لو كان كبيرا ، حتى يمكنه ارضاءها ، وكفكفة دموعها ، وذلك بأن يشترى لها بيتا جديدا ·· بيتا به حديقة كبيرة ، يختاره فى أرقى الاحياء وأنظفها ، ويؤثثه بأجمل الاثاث وأفخمه ، كان يتمنى ذلك دائما ، ويسرح مع تمنياته الجميلة ، حتى يوقظه صوت والده القاسى ، وهو يعنف أمه ، ينهرها ، يعيرها بأصلها الوضيع الفقير ، وأحيانا كان يضربها ·· وعندئذ كانت غمة من الحزن والكآبة تطغى عليه ، تسود حياته ، وتفسد عليه أحلامه. يستشعر صغره وضعفه بقسوة ومرارة ، فيلجأ الى دموعه يذرفها ، بينما يكبر حقده على أبيه القاسى المتجبر ·

·· ولم يكن والده فقيرا ، حتى يسكن بعائلته فى ذلك الحى القذر ، المكتظ بخليط من البشر ، والحيوانات · وبمثل ذلك المنزل المقبض الآيل للسقوط ، المهددة حياة ساكنيه بالفناء بين لحظة وأخرى · وانما كان والده غنيا حسب مقاييس ذلك الوقت ، يمكنه غناه من السكن فى أكبر المنازل الجديدة ، التى يؤجرها للناس الاجانب ، ويحرم منها نفسه وأسرته ، فى سبيل اكتناز المال ، كثيرة جدا تلك المنازل التى يؤجرها والده بايجارات باهظة ، والتى لايعرف عددها ، وانما يذكر أنه عندما كان يرافق والده ، أول الشهر ، لقبض الايجارات ، كان يمل من كثرة التجوال ، ويتعب ، برغم ما كان يشاهده فى منازل أبيه ، من مشاعد حلوة ، وأثاث فاخر ، ومآكل أجنبية بديعة ، وكان يعجب بكل ذلك ويحبه ، وخاصة الناس الاجانب ، بأجسامهم البيضاء المشوبة بحمرة ، وعيونهم الزرقاء ، وملابسهم الجميلة الانيقة ، تفوح منها رائحة العطر فتسكر عقله وتثمل روحه ·

.. كان كثير من السكان ، يدعونهم للدخـول في البيـت ، لشرب الشاى وأكل الحلوى .. وكان والده يمانع ويرفض كثيـرا من تلك الدعوات .. ربما لان العزومة ، كانت تعني غالبا ، المماطلة في دفع الايجار ، ولكنه هو الصغير ، المسحور ، المتطلع الى عالـم مبهم الفتنة كان يتمنى أن يوافق والده على الدخول ، وكان يحـزن اذا لم يفعل ، يحزن حتى لكأن شيئا ثمينا ضاع منه ، وكان يلجأ في بعض الاحيان الى الحيلة ، فيرتمى الى داخل البيت ، بمجرد أن يسمع الدعوة ، فلا يجد والده مفرا من الدخول وكثيرا ما عنفه علـى ذلـك وهدده بأنه لن يسمح له بمرافقته مرة أخرى ، وفي كل مرة كـان يوطن نفسه على طاعة أمر أبيه ، وعدم الدخول قبل أن يقبل والـده الدعوة ، الا انه في أكثر المرات كان يضعف أمام الاغراء .. اغراء تلك الارضية النظيفة اللامعة .. وذلك الجو اللطيف ، القليل الاضاءة ، وتلك الكراسي الفخمة التي يكاد يغطس فيهـا ، والايـادي الحلـوة الرصيفة ، التي تربت على وجهه وتتخلل بأصابعها الطويلة الرقيقـة شعر رأسه الكث ، وهو ياكل أصناف الحلوى الشهيـة ، ويشـرب القهوة بالحليب اللذيذ .

كل ذلك يجعله يتمنى ألا يدفع القاطنون الايجار ، حتى يكونوا بذلك مضطرين الى دعوة والده الدخول الى الجنان الانيقة .

أجل .. فقد كانت تلك البيوت البهية ، تشبه الجنة ، عندما يقارنها ببيتهم الضيق ، ذى الارضية الحجرية المتشققة ، تعشش في حفرها المياه حتى تأسن فتولد الحشرات والروائح الكريهة، وحجراته العارية الجرداء الا من حصير بال و (بطـان) ممزق تطل منه بقايـا ملابسهم الرثة ، وأكوام مختلطة من الصوف والشعر ، تجعله يكـاد يموت خجلا عندما تزورهم احدى الجارات .

وكأنما رق والده لحاله ، أو كأنما ضاق بالحياة مع أمه الدائمة التشكي والبكاء ، فلم يجد بدا من ارضائها ، فقد أخبره ذات يوم أنه قرر بناء منزل جديد ، سيقطنون فيه ، منزل جديد كتلك المنازل التي

يسكنها الاجانب ، وبنفس الاثاث ، منزل سوف نزوده بحديقة كبيرة، يلعب فيها ويمرح مع اخوته ، وأبناء الجيران الاجانب ، الاطفال النظاف المهذبين وفرح يومها كأن لم يفرح قط في حياته ، أخبر أصدقاءه وزملاءه ، وحتى أساتذته في المدرسة ، وكل من استطاع أن يخبره ، وعاش عاما كاملا من حياته مشغول البال ، مفعم القلب مشوق الخيال ، كل صباح وكل مساء ، يسأل والده ، متى يتم المنزل .. كلما رأى والده ، يأتي اليه راكضا ، ويتعلق به ويسأله : أين يقع .. وكم حجرة به .. وهل في الحديقة أزهار كثيرة ؟ و .. عشرات الاسئلة التي كانت تؤرقه وتوقد خياله الطموح .

وأخيرا حان الموعد .. وأخبره والده أن المنزل قد أوشك على الانتهاء ، ووعده بأن يكون أول من يراه ، وقضى أسبوعا لاينام ، لايأكل ، ولا يهنأ ، ولا يفكر الا في البيت الجديد .

وكان البيت الجديد يستحق كل ذلك ، يستحق كل التعب والسهر ، والفرح ، حتى فرحة الطفل الصاخبة البهيجة كان يستحقها، فقد كان منزلا جميلا أنيقا ، يفوق كل المساكن التي رآها جمالا وأبهة ، ألوانه زاهية متعددة ، تجذب الانظار وتغريها بالاقتراب منه ومعانقته ، وحديقة واسعة منسقة ، تحوي زهورا لا مثيل لرائحتها ولا لبهائها تحيط بالمنزل ، وكأنها تسجد اعجابا واحتراما ، فتزيده بهاء ومطابة .

وانطلق بمجرد أن فتح والده الباب ، يجري على أرضية الحديقة الرطبة الندية ، يخترق أبواب الحجرات الواسعة الطرية الطلاء الشذية الرائحة ، يتأملها ويتشقلب فيها ، ملطخا ملابسه عاجزا عن اتيان عمل آخر يعبر عن سعادته وشكره لابيه ، غير الصياح والجري في أرجاء البيت ، وكأنه حصان يروضه ، ويفرض عليه سلطانه .. وكما علمته بعدئذ الحياة ، كان يجب أن يكبت فرحته ، ويقتصد في اظهار فرحته ، حتى لاتحسده الاقدار ، فتعاقبه وتسلبه فرحته .

فقد اكتسحت المدينة ـ في ذلك الوقت ـ موجات كبيرة من

الناس الاجانب ذوى الوجوه الحمراء والعيون الزرقاء ، الذين يسكنون البيوت الجديدة الجميلة ، ويرتدون الملابس الانيقة ، والذين كان نفوذهم على أبيه كبيرا ، بسبب من الاوراق الملونة الكثيرة التى كانوا قادرين على التلويح بها ، فبالرغم من بكائه واستعطافه ، بل بالرغم من غضب أمه وتهديدها بالانصراف الى بيت أبيها ، الا أن والده كان أضعف من أن يقاوم اغراء النقود ، النقود الكثيرة التى دفعت له مقدما ، فأجر المنزل الجديد ، بكل رونقه وبهائه ، لاسرة من تلك الاسر المحظوظة التى ظل طول عمره يحسدهم ، ويظن أن الاشياء الجميلة خلقت من أجلهم ٠

٠٠ ونفذت أمه وعيدها حزينة يائسة ، ذهبت الى بيت أبيها ، وذهب هو معها أكثر حزنا وبؤسا ، كان يشعر أن أمه لم تكن ترغب فى مغادرة البيت ، ولكنها كانت مضطرة الى ذلك للحفاظ على كرامتها أمام الجيران الذين أخبرتهم بأمر المنزل الجديد ٠

وكان يخيل اليه أن أمه على استعداد للرجوع بمجرد أن يأتى أبوه ويطلبها ، ولكنه لم يفعل قط ٠ وعلى ذلك فقد عاشت أمه فى بيت جده ، حزينة مكلومة ، ذليلة الجانب طائعة الهم ، واقسم يومها — فى سره — أن يعيد لها شرفها وعزتها ٠٠ أقسم أن يزيل من عينيها ذلك الذل والانكسار ، وأن يجعل ظهرها منتصبا ورأسها عاليا ، ونظراتها صافية جريئة ٠ قرر فى نفسه أن يكبر بسرعة وأن يعمل ليحصل على نقود كثيرة ٠٠ نقود تكفى لبناء منزل جديد ٠٠ منزل جميل به حديقة واسعة ، أجمل بكثير من منزل أبيه ، يضع فيه أمه، لتعيش مكرمة معززة ، وعندئذ سوف ينتصب ظهرها ، وتصفو نظراتها ، سوف تعود البهجة الى قلبها ، وسوف تفرح به وتسعد ٠

٠٠ ومضت الايام ، وهى دائما تمر ، والتجارب تصقله ، والاحداث تنميه ، وحلمه الكبير يملك عليه نفسه ويدفعه الى الجد والمثابرة ، حتى أتم دراسته الثانوية ثم سافر الى الخارج ليتم دراسته العالية ، ولم تنسيه سنوات الغربة ، ولا المجد الذى حصل عليه ،

ذلك الحلم الطفولي ، الذي كان دافعه دائما الى الرقي والصعود ·
وعاد ·· عاد رجلا ناضجا ، جميل الخلقة ، مفعم القلب آمالا وأحلاما·
واستقبلته أمه العجوز غير مصدقة أن هذا الرجل الطويل الوسيم، هو ابنها الصغير الحالم · ومضى يحتضنها وفي قلبه غم وكد زاداه تصميما وعزما ·· ذلك أنه أدرك في عيني أمه ظلا لانكسار قديم ، لازال يقبع في أعماقها ، يغرقها وينهشها بصمت ، ومضى يعمل بجد واجتهاد ، حتى استطاع الوصول الى مكانة طيبة ·· وادخر مبلغا طيبا من النقود ، فاشترى قطعة أرض في احدى الضواحي الجميلة ، وكلف أحد المهندسين ببناء منزل فخم أنيق ، ولم يستطع الصبر حتى يتم بناء المنزل ، بل جرى الى أمه يخبرها بذلك العهد القديم الذي أخذه على نفسه منذ الطفولة ، جاء يخبرها أنه اليوم على استعداد لاداء دينه وتحقيق وعده ، فأخذته بين أحضانها ، كما كانت وهو صغير ، وانطلقت تبكي من فرط الفرح ، وذاب الانكسار الآسن مع الدموع ، ونظرت اليه لاول مرة منذ زمن طويل بعيد ، بعينين صافيتين تمتلئان حنانا ·

·· وما أن أتم قصته حتى احتضن خطيبته وهو يقول كأنما يود البكاء : وهكذا ·· تعرفت عليك ·· خلال مدة البناء ·· وقبل أن يتم كنت قد ملكت قلبي ·· وبالتالي المنزل ·

وسكت لحظة قبل أن يضيف بصوت خافت كما ملكته تلك الاسرة تشبهك ، منذ زمن بعيد ·

فابتسمت له ابتسامة رقيقة ، غطت بها ذكرياته اليائسة ، ثم خطت خطوتين قبل أن تمد له يدها الرصيفة اللدنة ، المزدانة بخاتم الخطوبة ، فتبعها مسلوب الارادة ، وهو على يقين من أنه لن يستطيع النظر في عيني أمه بعد الان ·· فقد كان يخشى أن يرى ذلك الانكسار القديم ·

الدار البيضاء : يوليوز ١٩٦٩

**محمد الذهبي**

خير الديـن محمـد

# ثورة من اجل ترقية غير منتظرة

## قصة قصيرة

حينما لفظتنا قاعة العرض الى الشارع ، كان المطر قد توقف قليلا عن النزول . تفرق الناس ، فالبرد والنوم يطاردان الساهرين فى ليل ديسمبر الخريفى .. التفت سعيد ، وجد نفسه وحيدا على الرصيف . لم يستقر على رأى .. فالليل ما يزال طويلا وغدا لـن يكون عليه أن ينهض باكرا ، تماما كمثل أيام الاحد التى مضت والتى ستمضى .. قطع الشارع العريض .. كانت ساعة البرج الكبيرة تعلن منتصف الليل ودقائق .. عاد المطر ينزل من جديد .. ومقاهى الليل ما تزال ساهرة ، والليل يكفن المدينة بثوب بارد وحزيـن ، ومركز الشرطة وسط المدينة تنطلق منه من حيـن لآخر أصـوات أجراس التلفون .. فالذين لايمسهم عذاب النهار ، يتعرضون لعذاب الليـل .

تحرك سعيد ، كان أقرب مكان منه هو الملهى الليلى الجديد .. دفع الباب بيده اليسرى .. كثير من أصدقائه يعاتبونه لانه يستعمل اليسرى أكثر مما يستعمل اليمنى ، لكنه هو وحده يعرف .. داخل

المقهى تجمعت وجوه لاتتشابه ٠٠ والهموم فى النفوس كثيرة والضوء الاحمر الخافت يبعث على الغثيان ٠٠ لم يكن من السهل أن يميز سعيد وجها من الوجوه ، فدخان السجائر المحشوة بالكيف يتحرك فى كل اتجاه داخل العلبة الضيقة ٠٠

هل كان من الضرورى أن يتجمع هؤلاء هنا ؟ ما عاد الناس يعرفون أين يضعون أقدامهم ٠٠ فالظلال تتبعهم فى كل مكان ٠٠ وحين يفوه الانسان بشىء فان الظل يتدخل بسرعة ٠٠ ربما فكر الناس أن العلبة خالية من الظلال ، لذلك هم يأتون الى هنا ٠٠ لو فكروا قليلا لعرفوا أن الظل موجود فى كل مكان ، ولما ثرثروا كثيرا ، ولما شربوا كثيرا ٠٠

فى الزاوية كان رجلان يثرثران ٠٠ بحث سعيد عن مكان ، فلا مقعد هنا شاغر ٠٠ استقر رأيه على أن ينزوى جهة الرجلين ٠٠ ثمة مقعد فارغ ثمة ثرثرة ٠٠ وربما ثمة ظل ٠٠ الصدفة هى التى أوجدت ذلك المقعد ، والا لبقى تائها بين الكراسى ٠٠

لم يستأذن الرجلين ٠٠ كانا غارقين فى حوار ٠٠ حينما جلس سعيد جاءته راقصة أوجدتها الصدفة والظروف هنا كما أوجدت سعيد وكل المتحلقين حول الموائد تحت الضوء الاحمر الباهت ٠٠٠

امتدت يدها الى علبة السجائر ٠٠ منعها سعيد ٠٠ رجعت الى الوراء ٠٠ قالت :

ـ شاب بخيل ٠

رد سعيد :

ـ انسانة بلا أخلاق ٠٠

حينما كانت تبتعد عنه لتغيب بين الطاولات والكراسى فى اتجاه غير محدد قالت :

ـ لو كنت ذات أخلاق لما رأيتني هنا ٠٠ أوف ٠٠ اتفوا ٠!
نهض ٠٠ كان يجب أن يكون وقحا ٠٠ لكن يدا امتدت من الخلف لتحبس حركته ، التفت ٠٠ كان أحد الرجلين هو الذى أمسك بيده ٠٠

ـ دعها هى امرأة مغلوبة على نفسها ٠٠

جلس سعيد ، هدأت أنفاسه ٠٠ ضرب الرجل كفا بكف ٠٠ حضر النادل ، ثم غاب ، ثم عاد ، ثم غاب ٠٠ حركة ألفها النادل ، والا لكان أبناؤه قد ماتوا جوعا ٠٠ يبدو أنه متزوج ٠٠ سنه تؤكد ذلك ٠٠ قسمات وجهه التى تداخلت بفعل عامل الزمن تعلن أن الرجل من الذين قضوا حياتهم فى خدمة الناس داخل المقاهى والخمارات ٠

أشعل سعيد سيجارته ، سأله الرجل :

ـ تأتى دائما الى هنا ؟

ـ أحيانا ، مع الظروف ٠

ـ الظروف بشعة ، أليس كذلك ؟

رد صديقه :

ـ ظروفنا ظروف كلاب تائهة ٠

علق سعيد :

ـ ومع ذلك فلا أحد يبحث عن تغيير ٠٠ كل الناس ينتظرون أن تعطف السماء ٠٠ الصمت ما عاد يفيد ٠

جرع كأسا ، وكأسا ، وكؤوسا ، فالليل طويل ، والمكان دافىء ٠٠ وغدا صباحا لن يستيقظ الساهرون باكرا كما اعتادوا ٠٠ تغيير بسيط فى حياتهم ، لكنه تغيير غير مفيد بالتأكيد ٠٠ قال الرجل لصديقه :

ـ اننى أعمل فى ادارة الضرائب ‥ ولا تسأل عن فساد الادارة ‥ فالترقيات لاتصلنا ، حتى ونحن ننبح ككلاب ضائعة ، فى كل مرة ‥

ضحك صديقه ‥ رفع الكأس الى فمه فى حركة متداعية ‥ ضرب كفا بكف ‥ حضر النادل وغاب ثم حضر ‥ روتين اعتاد عليه ٠ لماذا اذن ‥ يحضر ويغيب ؟ ألم يكن من الافضل أن يظل دائم الحضور ‥؟ ضحك الرجل مرة أخرى ثم أجاب :

ـ الحالة هى نفسها أينما ذهبت ‥ تصور ، اننى فى بلدية المدينة أقضى وقتى فى سلب البسطاء من الناس أموالهم بطريقة أو بأخرى ‥ اننا لانعيش الا مع هؤلاء ‥

علق الصديق :

ـ الاغنياء أغنياء لانفسهم ‥ حيث يأتى رجل ثرى يدخل مباشرة الى مكتب الرئيس ، كل شىء يسوى بسرعة ‥ هم يعرفون بعضهم ، لذلك لايحتاجون الينا نحن الصغار ٠

ـ اذن ماذا تنتظر من الظروف ؟

ـ لاشىء تماما ‥

ـ النقابات مثلا ‥

حمل الكأس الى شفتيه ‥ أشعل سيجارة محشوة بالكيف ‥ تنسم العادة بجنون ‥ عاد ليقول :

ـ شخصيا أنتمى الى النقابة ‥ وهذه الايام سوف تشن اضرابات عامة ‥ سوف نخرج الى الشارع ‥ لقد مللنا صمت الادارة ٠

ـ لن تنجحوا ‥ البوليس لايعرف الا القمع ‥

ـ لا ، البوليس أصبح يدرك كل شىء ٠

أطفأ الرجل عقب السيجارة المنفضة ، كان سعيد صامتا ..
عاد الرجل الذى يعمل موظفا صغيرا فى البلدية ليقول :

– نحن فى البلدية لا شيء من هذا .

صاح فيه صديقه :

– لانهم يعطونكم دقيق الفقراء ..

غير الرجل القصير جلسته .. ضحك من الاعماق حتى الفتت كل الرواد الى جهته .. تعالت الضحكات .. الرجلان لايخافان الظلال لذلك يتحدثان .. من قال ان الظلال غير موجودة داخل العلبة ؟ لا أحد يعرف .. أما سعيد فهو صامت ..

ردد الرجل القصير بعد لحظة :

– الدقيق يأخذه الآخرون .. والفلات والمعامل المترامية خارج المدينة جاءت من هذا الدقيق ، الذين يعيشون فوق ، هم الذين يتمتعون . نحن كلاب .. الاجرة الشهرية نصرفها بين الحانات والاولاد يموتون جوعا : وكل صباح يسقط ضحايانا البسطاء من ساكنى المدينة ..

كل الرواد مشغولين ، هموم النفس بلا تعداد .. وما تزال الراقصة لم تتعب .. وما تزال تأخذ السجائر والكؤوس مجانا .. تلك طريقتها فى الحياة ..

سأل الرجل صديقه :

– يجب أن تنتمى الى النقابة .

– سوف أفعل حتى وأنا أعرف اننى سأقمع وسط العمل ..

كان كل شيء فى العلبة يؤكد أن العربدة وصلت الى حدها بالرواد .. كانت الراقصة التى يخفى الماكياج تجاعيد وجهها تتجول من دراع الى آخر . فالذى يهمها هى اليد التى تمتد الى الجيب

يقتص منه ، ويلسع خاصرى ، لذا قررت أن لا أصحوا أبدا ، وهـذا لارضاء خاطرها ٠٠ لم تمل وضعيتها ٠٠ حياتها لاتتغير ٠٠ جاءت ، اقتربت من سعيد ٠٠ حدقت فيه جيـدا ٠٠ حدق فيها جيـدا ٠٠ ابتسمت ٠٠ قرأت شيئا ما فى نظراتـه ، التفتت ، قالت بصـوت عـال :

ـ ألم تنتبهوا ٠٠ بعد يومين سيكون رمضان ونحن ما نزال نشرب ٠

ضحك الرواد ٠٠ ضحكت الراقصة ثم رددت :

ـ اليوم خمر ، وبعد يومين حشيش ٠

ضحك الرواد ٠٠ وضربت الكؤوس ببعضها ٠ كانت الراقصة ما تزال واقفة ٠ لحظة أخذت أحد الرجلين ٠ قام الرجل ٠٠ قدماه لاتساعدانه على الوقوف ٠ كانت الفتاة أكثر اتزانا منه ٠ طلبت اليه أن يرقص ٠٠ رمت قطعة فى ثقب علبـة الاسطوانـات ٠٠ تعالـت الموسيقى ٠٠ رقص الرجل ، رقصت الفتاة ٠٠ قام الجميع للرقص ، كل الرواد كانوا فى حالة انفصام عن الذات ٠٠

التفت سعيد الى الرجل القصير الجالس فى الجانب الايسر وقال له :

ـ ألا ترقـص ؟

ـ اننى لا أحسن الرقص ٠٠ بل أحسن الحديث ٠

سأله سعيد من جديد :

ـ هذا الرجل صديقك ؟

ـ لا ، التقينا هنا صدفة ٠٠ وتحدثنا طويلا ٠٠ أفكار هـذا الرجل أعجبتنى ٠٠ فهو يريد التغيير ٠

علق سعيد :

ـ يبدو عليه انه حازم ..

ـ انه نقابي .. السياسة ملأت رأسه .. ولاحظت انه لا يتحفظ ..

أجاب سعيد :

ـ التحفظ انهزام .. أليس كذلك ؟

لم يجب الرجل .. حمل الكأس الى فمه .. حمل سعيد كأسه .. أشعلا سيجارتين .. تصاعد الدخان .. قام سعيد .. دخل المرحاض .. لم يغب طويلا .. عاد جلس .. وضع رأسه بين يديه ، عاد الى الكأس وسأله الرجل :

ـ أنت موظف ؟

ـ أنا طالب .

ـ هائل .. الطلبة هم معتمد البلاد .
علق سعيد :

ـ لا يجب أن يبقى الطلبة وحدهم فى الساحة .

ـ بالتأكيد .. وهذا ما قلته للرجل .

ذابت الموسيقى ، وذابت الرقصة ، عاد الرجل ، جلس بينهما ، جلست الى جانبه الراقصة .. نظراتها تكاد أن تلتهم سعيد .. أدار سعيد وجهه ، لم تهتم بحركته .. غمزته ، ابتسمت ، ثم أعادت الابتسامة ، ابتسامة صفراء كوجهها بلا مساحيق ، أعادت الغمزة .. قال سعيد فى قرارة نفسه :

ـ ألم يكفها الذى الى جانبها .. النساء هكذا ، لكن لايجب أن تبيع وتشترى على ظهر الرجل ، هو لم ينتبه .. العاهرة .!

دخل شرطيان ، كانا يرتديان بدلات الخريف الرمادية المغرقة في القدم ·· تحركا داخل العلبة ·· ربما يبحثان عن هـارب مـن الفاركونيت أو من الاتوبيس ·· اقتربا منهم ، حدقا فيهم جيدا ·· لا شيء فيهم يدل أنهم هاربون ·· غادروا المكان ·· قال الرجـل الجالس الى جانب الراقصة :

ـ تعب ، وسهر ولا مردود ·

علق الرجل القصير :

ـ ومع ذلك فهم لايهتمون ·

قال سعيـد :

ـ انهم كالجرذان في كل مكان ·

ـ لو أنني كنت مثلهم لطالبت بما هو حق لي ··

هكذا أضاف الرجل القصير ·· صمتوا ·· الليل ثقيل على الساهرين ·· وذخان السجائر زاد الجو كثافة داخل العلبة ·· فرك سعيد أصابعه ثم قال :

ـ هم في أغلبهم طبقة بسيطة غير مثقفة ·

قاطعه الرجل الجالس الى جانب الراقصة :

الطبقة المثقفة تشكل خطرا على الذين ··· أنتم الطلبة مثلا لو كان في امكانهم لحرموكم من الجامعة ·

أضاف الرجل القصير :

ـ الصحافة هي وحدها تكشف الحقائق ·

ـ لكنها تصادر ·

قال سعيد ، ثم ضرب كفا بكف ، حضر النادل ، وغاب ثـم حضر وغاب ·· لكن لماذا لايكون حضوره دون أن يحتاج الى غياب·· تململ الرجل الجالس الى جانب الراقصة ، فتح فاه ، تثاءب وردد :

– انها أمور تأتيهم من فوق .

رد سعيد :

– لكن .. يجب أن يفهم البوليس ، فمتى يفهم ، أزلنا عنه صفة الجرذان ..

رفعت المرأة كأسها .. رمته في جوفها .. أخذت سيجارة ، أشعلتها ، كانت تتمايل ، صاحت وهي تبتعد :

– هؤلاء الرجال يتحدثون في السياسة .

لم ينتبه أحد .. كل واحد كان غارقا في همومه ، فالذين تغرقهم مشاكل الحياة يلجأون الى هذه المغاور .. لا أحد ينتقد تصرفات الآخر ، كل له همومه ، كل واحد يتقيأ أحزانه ، رديف كأس حامضيته على حساب الآخرين دون ملل .

لم يعرف سعيد كم مضى عليه من الوقت وهو هنا .. لكنه قام .. كان يجب أن يلتحق بالزوجة والاولاد ، فمنذ أن خرج بعد الظهيرة لم يعد الى المنزل .. تلك حالة المحمولين على هامش الحياة.. قام الرجلان .. غادروا جميعا الخمارة .

كان البرد في الخارج يلعن الدفء الذي كانوا مجتمعين فيه في هذه الليلة من ديسمبر الجنائزي .. تحركوا ، حينما قطعوا الشارع ، رفع سعيد بصره ، كانت ساعة البرج تعلن موعد الفجر.. والظلام ما يزال متراميا .. والبرد يلهث في كل مكان .. توقفت اللعبة الليلة ، نزل رجل بدين ذو بدلة رمادية قديمة .. شارباه الطويلان بهما خطوط بيضاء .. قال :

– أين كنتم ؟ الى أين تذهبون ؟

كانوا يتمايلون .. نزل رجل آخر ، دخلوا العلبة التي كان بها دفء .. كان هناك مجمر نار .. قال الرجل الذي كان الى جانب الراقصة :

ـ لكى يعيش الانسان ، لكى يرقى ، بامكانه أن يتقن اللعبة··

التفت سعيد جهة الرجل القصير ·· كان يبتسم ابتسامة صفراء كوجه الراقصة بلا مساحيق ، ردد مع نفسه :

ـ الرجلان هما الضحية هذه الليلة ·· تلك هى الحياة ··

لم يعبر ، كان هادئا ·· كان المطر ينزل ·· كان الرجل ذو الشاربين يدفىء يديه ·· كانت الاشجار تسير معهم ·· والمدينة فارغة ، والصباح يزحف ثقيلا ·· توقفت العلبة ·· نزل الشرطيان· نزل الرجلان ·· انفرد الرجل الذى رقص مع الفتاة بالشرطى القصير دار بينهما حديث ··

أشار الى سعيد والى الرجل القصير ·· ضحك سعيد ، ضحك الرجل القصير ضحكة صفراء ·· لم يعبث ، ابتعد عن سعيد، انفرد بالشرطى المنتفخ البطن ·· أشار الى سعيد والى الرجل الذى رقص مع الفتاة ·· دار بينهما حوار ، ثمة شىء ما ·· لم يتحرك سعيد ·· كان هادئا ·· قبل أن تتحرك العلبة ، قال الشرطى البدين للمكلف فى المركز :

ـ اهتموا بالرجلين ·· سوف نهتم بالشاب فى ···

التفت سعيد جهة الرجلين ثم قال :

ـ حين تسمح الظروف سأزوركما فى العمل ·

ضحك الرجلان ضحكة صفراء طاعنة فى البلادة ·· عادتهما أن يضحكا الضحكات الصفراء ·

تحركت العلبة ·· كان الصباح قد أخذ يبتسم حتى وبرد الخريف يلهث · كانت الاشجار تتلاحق· كانت تتلاحق فى ذهن سعيد ثرثرة الرجلين ·· قال سعيد للشرطى :

ـ ما رأيك فى اللعبة الفاشلة ؟

قال الشرطى :

ـ أنت تخرف يا ولدى ، لعبة فاشلة أولا ، هذا لايهم ، المهم انه لكى تعيش ، ينبغى أن تكون ثرثارا ٠

سكت الشرطى ٠٠ كانت العلبة تسير ٠٠ كان المطر ينزل ٠٠ والاشجار تتلاحق ، وثرثرة الرجلين تتلاحق فى ذهن سعيد ٠٠

**سطات : خير الدين محمد**

الميلودي شغموم

# كان يا ما كان

أقصوصـة

– العادة جريمة يا مولاى :

كان شغوفا بتربية الدجاج ومغرما بالرهان ٠ طريقتـه فيـه غريبة ٠ يستدعى أحد الفقراء فى أى وقت أراد : «سنطلق ديكين فى الحلبة ليتصارعا ٠ اختر أيهما تشاء ٠ الآخر يبقى لى ، حظى ٠ اذا انتصر ديكك أعطيتك مائة رأس من البقر الرومى ٠٠ ألـف دينـار زيادة ٠٠٠ اذا انتصر ديكى قطعت رأسك !» ٠

– العادة عاهة يا مولاى :

كان يعشق المسايفة ومريضا بالتحدى ، بالغرور ٠ طريقته فى المسايفة فريدة من نوعها ، يأمر باحضار أمهر متعاطيها ويشتـرط فيهم أن يكونوا متزوجين ، لهم أولاد ، يترك الشراب يختمـر فـى رأسه وينادى على خصمه : «اسمع أيها البطل المغوار ٠ سيحصـل لك شرف منازلتى ٠ من حقك أن تختار أى نوع من اللباس ٠ مـن حقك أن تستعمل أى صنف من السيـوف ٠ اذا غلبتنى أعطيتـك كيسا من ذهب وزوجتك احدى بناتى ٠٠٠ تختارها بنفسـك ٠ اذا غلبتك ٠٠٠ زوجتنى أحد أبنائك ٠٠ أختاره بنفسى !» ٠

– أجل ، العادة مصيبة يا مولاى :

كان يحب القمل ويقيم له مزرعة فى رأسه ، «من ليس فيه قمل غير مؤمن !» ٠ وكلما حل بقرية جمع فلاحيها : «واحد منكم سعيـد

فى الدنيا والآخرة • واحد منكم سيغنيه الله هذه الليلة •• الامر فى غاية السهولة • تقدموا واحدا بعد الآخر ، مفروض عليكم أن تتقدموا• سنفتش رؤوسكم ، ونحصى عدد القمل فى كل رأس ، الذى يحتضن أكبر عدد ينال صاحبه مائة فدان من الارض المسقية ، ويزوج بأجمل فتاة فى القرية ••• مجانا ••• ولو كان متزوجا • أما الذى يحتضن أقل عدد فيكون جزاء صاحبه مائة جلدة ، ويجرد من كل أملاكه !»•• لم يكن أحد ينجح فى الرهان ! وكل الناس يقولون عنه الكثير من مثل هذا يا مولاى • يقولون انه هكذا كان • أظل أسأل كتب التاريخ وحدى : «هل حقا هكذا كان !؟ هل كان أقل أو أكثر مما يقال !؟» • يؤرقنى : «هو غير مذكور فى كتب التاريخ كما كان •• غير موجود بالمرة !» •• من يستطيع أن يؤكد انه غير ذلك !؟ •• من أخباره أيضا يا مولاى •••

هنا فقط • هنا بالضبط أدرك شهر زاد الصباح فامسكت عن الكلام المباح وغير المباح •

**الميلودى شغموم**

---

محمد ابراهيم بوعلو

# الارث

**(أقصوصــة)**

تصرف أخوها القصير في كل شيء بعد وفاة والدهما ، وأخفى عنها كل شيء ، ولم يسمح لها الا بشيء واحد ، وهو أن تسكن معه في الطابق الاسفل من البيت الذى تركه والدهما ، ذرا للرمـاد في العيون .

واكتفت هي بهذا الارث الذى لم تبخل على صاحبه بزيارة قبره كل يوم جمعة .

كانت ظروفها المادية صعبة للغاية ، فزوجها الفقير لم يترك أية فرصة سانحة تمضى من غير أن يحاول الاستفادة منها ، ولكن فيما يظهر أن الارزاق قد وقع توزيعها بين البشر ، وكان هو ممن ضاعت قسمتهم بين أرزاق العباد ، وجشع الاستعمار .

لم يكن ينقص زوجها شيء ، بل هو يمتاز على غيره بكثير من الاشياء . حقا ، هي لم تعرف من الرجال الا أباها وأخاهـا . واذا وضعت زوجها بجانبهما فانه يفوقهما معا ، قلب رحيـم ، وصبـر عجيب ، وشجاعة نادرة . ولكن ، كل هذا لم يمنع من أن يحتقـره أخوها ، فهو لايرد على سلامه بسلام ، ولا على كلامه بكلام . مع أن زوجها رجل بكل معنى الكلمة ، فهو سيد البيت ، يريد أن تسمـع أقواله ، ويصر على أن تطبق بحذافيرها ، لما فيها من حصافة فـى الرأى ، وسداد فى التفكيـر ، وله أسلوبـه الخاص فى الاقنـاع ،

لاتستطيع معه الا أن تلبى أوامره باخلاص شديد • على عكس أخيها الذي يأتمر بأمر زوجته ، ولا يعصى لها مطلبا ، في حين أنه عندما تجمعه مصادفة من مصادفات الدهر مع زوجها سرعان ما يبدو الرجل القوى المتغطرس العنيد • ويبدو زوجها بجانبه الرجل اللين السمح المتفهم ، الذى لايريد أن يدخل فى خصام قد يجر عليه القطيعة والعداوة ، ولذا يبدو على غير ما هو عليه •

وعندما كانت تتأثر من موقفه ، وتستدرجه لاقناعه بأن يقف فى وجه أخيها موقف الند للند كان زوجها يظهر لها خطل تفكيرها ، وأن عليها أن تقلع عن استفزازه لانه لن يرضخ لافكارها التى ليست الا ردودا انفعالية وقتية لاتجدى فتيلا • ويذكرها بأن اليوم الذى ستتغير فيه أمورهما آت لاريب فيه ، ويأخذ فى شرح أفكاره ، وميزان القوى الذى يرجح الان بثقل أخيها وأصدقائه المستعمرين •

وبدلا من أن تكف عن تشجيعه فى الوقوف أمام غطرسة أخيها تلتجىء عادة الى البكاء ، الذى تبرره بين فترات الشهيق أنها منحوسة الحظ ، وأن زوجها بدلا من أن يدافع عن مصالحها ويأخذ حقها من أخيها لايحرك لذلك ساكنا ، ولئلا يدخل معها فى «نقاش» يغادر البيت ، ولا يعود اليه الا فى ساعة متأخرة من الليل تكون هى فيها قد قد خلدت الى النوم فيتسلل الى جانبها وينام وفى نفسه شىء من الحسرة على موقفه «المتخاذل» أمامها • وحيث ان حصافة تفكيره تنتهى به الى أن أخاها رجل ذو مال تسمع أقواله ، وله أصدقاء ، ويقدم لارباب السلطة مساعدات ••• يجعله كل ذلك يكف عن التفكير فى القيام بأى شىء مما تقترحه زوجته ، وينتظر فرصة آتية لترد الامور الى نصابها •

وتقضى زوجته ، عادة ، ثلاثة أو أربعة أيام بعد بكائها لاتحدثه الا باقتضاب ، وتنهمك فى الخياطة لتوفر ما ينقص أولادها من لوازم ، وحاجيات • وما دامت قد عودته ذلك فهو متسامح معها الى أن تركد ثورتها ، ويصفو خاطرها فترجع الحالة الى ما كانت عليه

من وفاق تام ، من غير أن يؤنبها أو يشدد فى معاملتها ، بل يعود جوهما الى صفائه ، بل أحسن بهجة ، وأرق معاملة ، حتى يثير حسد أخيها وزوجته ، اللذين يبحثان عن منغص جديد يعكران بـه صفـو عيشهما · وبين فترة البحث ، وبين فترة الخصام ، وفترة الصلح تمر الايام حتى ليبدو للجيران أن هذه الحالة لابد وأنها ستقف عند حد ·· ولعل شفقة الرجال كانت تحوم حول الزوج ، وشفقة النساء حول الزوجة · وعلى كل حال فالجيران مجمعون على أن الاخ قاسى القلب لايرحم ولا يشفق ، ولا يقيم أى وزن لا لقانون ولا لعرف ، ولا حتى لصلة دم · فهو بتجارته الناجحة يستطيع أن يسد الافواه وأن يفعل ما يشاء · ويغتاظون لسلوكه ذاك من غير أن يتدخلوا لا بقول ولا بفعل · وكأنهم ، هم الآخرين ، ينتظرون أن تسنـح الظـروف ليصيحوا فى وجه الطاغى ، منددين ، منتقمين ، ولكن الى أن يحين ذلك اليوم تظل الاسرة البئيسة فى حالة من الضنك لايعرف مقدارها الا فصل الشتاء القاسى ·

وفى هذا اليوم ، تخبر الزوجة زوجها عندما عاد فى المساء بأن أخاها ظل بالبيت على غير عادتـه ، وأنه لاشـك أصابه مـرض أو مكروه ، غير أن زوجها يهدىء من روعها ويطلعها على جلية الامـر : فأخوها لم يقبل أن يقفل متجره فى هذا اليوم عملا بأوامر الفدائيين وأنه خرج كعادته الى متجره حتى لايغضب أصدقاءه الاستعماريين ، غير أنه فى طريقه صادف عسكريا يحمل بندقية ذات سكين حاد فى يده ، وفى حركة تساير خطواته ، فهى تتقدم الى الامام ، وتتراجع الى الوراء ، وحيث أن الطريق ضيقة لاتتسع الا جسمه الضخم ، فانه خشى أن تبقر السكين الحادة بطنه فرجع أدراجه خائفا ·· ولقـد شاهدهما بعض المارة يهرول ، والجندى من ورائه ، وتندروا ضاحكين من ذلك ·

وعندما تخيلت الزوجة الموقف ضحكت هى الاخرى وهى تقول فى نفسها : «لقى جزاءه ··» وقهقه الزوج ، هو الآخر ، وهو يقلـد

أخاها فى مشيته ويخرج بطنه المنتفخة ·· وضحكا معا بعض الوقت من غير أن ينسيا خفض صوتهما حتى لايسمعهما سكان الطابق العلوى ·

وما أن انتهيا من العشاء حتى سمعا صوت الاخ وهو ينزل الدرج ، ووقوفه ببابهما ينادى الزوج ، وعندما خفت اليه أخته مرحبة أبعدها عن طريقه بقوله : «اننى فى حاجة لان أكلم زوجك فى أمر خاص» · واقترب منه الزوج مرحبا هو الآخر ، وهو يضرب أخماسا بأسداس · وقرب الاخ فمه من أذن صهره ، وأخذ يتحدث اليه بصوت منخفض ، وطلب منه أن يخلصه من موقف حرج · اذ لايخفى أن الظروف التى تعيشها البلد تحتاج الى الحيطة والحذر · وان عليه أن يبعد عنه التهم التى يمكن أن توصم به · فهو فى صباح هذا اليوم كان ضحية متابعة من طرف عسكرى استعمارى ، ظل يتابعه طيلة الطريق ، وهو فى كل مرة يلتفت فيها اليه يجده من ورائه · ولولا أنه بحيلة بارعة استطاع التخلص منه لكان قد مسك به وبقر بطنه بسكينه ، ولذا فانه يخشى أن تقدم الشرطة الى البيت وتفتشه · واذا ما فعلت فانها ولاشك ستجد سيوف والده التى تركها بعد وفاته · وسأله الزوج : «ما العمل ··؟» وأجابه الاخ : «يلزم التخلص من السيوف بأية وسيلة ··» فرد عليه الزوج :

«تخلص منها اذن ··» وقال الاخ فى استرحام :

«أرجوك أن تساعدنى على ذلك» ·

ـ وكيف ··؟

ـ أن تخرجها من البيت وتلقى بها فى مكان مهجور ··

ـ أنت تعلم أن ذلك غير ممكن ·

ـ ولماذا ··؟

ـ الحراسة مشددة ·

- عجبا .. وكيف أستطيع أنا ذلك ..؟!

وحيث أن الزوجة أمكنها أن تسمع كل الحديث أحبت أن تتدخل ، ولكن زوجها كان قد سبقها الى الكلام : «أنت تعتقد أن القاء القبض على شيء لا قيمة له ..» .

واحمر وجه الاخ وهو يبرر موقفه : «لا .. لست أقصد ذلك.. انما أنا أعرف أنك شجاع .. وفي استطاعتك أن ..» وقاطعه الزوج قائلا : «ابحث لك عن آخر غيري يخلصك من سيوفك المسروقة .. أنا لست بشجاع .. وليس في استطاعتي أن اقدم لك هذه المساعدة ..» .

والتفت الاخ الى أخته مستعطفا : «قولي له اننا في موقف حرج» وأجابته الزوجة بسرعة : «ولماذا تقصدنا نحن بالذات ؟ ان السيوف ليست لنا .. وهي ملكك ..» .

- ولكنها كانت لأبينا ..

- كثير من الاشياء الاخرى كانت لأبينا ، أين هي ..؟

وانطلقت تعدد بصوت مرتفع كل الممتلكات التي سطا عليها .. واشتد حنقها حتى بدا واضحا أنها كانت تنتظر مناسبة مثل هذه لتنفجر . واقترب منها زوجها يهدىء من ثائرتها . ثم صرفها الى داخل البيت ، ورجع الى صهره يحدثه بهدوء : «أنت سمعت ما قالته أختك ، ومعها حق في كل ما سمعت .. هل تريد أن تعلق على ذلك بشيء .. ؟»

- أرجوك أن تفهم موقفي ..

- وأنت ..؟ ألا تريد أن تتفهم موقفنا ..؟

- أتساومني ..؟

ـ لا ·· يمكنك أن تعود من حيث أتيت ·

ـ والسيوف ··؟

ـ احتفظ بها ··

ـ أرجـوك ··

وعادت الزوجة مهرولة لتقول لزوجهـا : «لا تسمع منـه أى كلام ·· تعال ·· ألا يكفيه أنه جعلنا طيلة هذه الاعوام نعيش فى فقر وذلة ، يريد اليوم أن يرميك الى الاعداء ·· لا ·· لاتسمع منـه أى كلام ·· ليذهب ·· ليذهب» ·

وأطرق الاخ برأسه واجمـا ، فى حين تدخـل الزوج قائـلا لزوجته : «واذا ما أرجع لك نصيبك من الارث ، هل تقبلين أن نقدم له هذه المساعدة ··؟» وأجابته : «اذا لم يكن فيها خطر على حياتك··» وطمأنها بقوله : «لا تخافى ··» ·

وتنفس الاخ الصعـداء ، وصاح فى زوجتـه : «انزلى تلـك الاشياء ·· هيا اسرعى يا امرأة ··»

وسمعوا رنين السيوف تنزل الدرجات حيث حملها الزوج فى شجاعة الى الخارج ، بعد أن أخذ الاخ عهدا على نفسه أن يتخلى لها عن كل حقوقها ·

ومنذ ذلك الحين ، والجيران يتساءلون عن سبب تخلى الاخ لاخته عن نصيبها فى الارث ·

الرباط ـ محمد ابراهيم بوعلو